أحببت زنجية

ل : وداد إسلمُ

لم يكن يوما اعتياديا، كان صباحا شديد البرودة مع اختفاء الشمس تحت موسيقى الغيوم الهادئة.. إنه فبراير في بداياته، حيث كانت بدايتنا أيضا كنت حينها واقفا بقامتك الطويلة تسد باب مكتب مدير الثانوية يكاد رأسك يلامس بداية الباب بجسدك الذي يميل الى النحافة قليلا ببشرتك البيضاء وأنفك الدقيق الطويل بعينيك الواسعتين تحويان داخلهما عدسات سوداء تتناقض ولون بشرتك تلبس دراعة زرقاء تبدو كالجديدة ...وكنت أنا أسابق الزمن أبدو مهرولة.. إنها الثامنة والنصف وحتما أستاذ اللغة العربية قد بدأ حصته ..لقد تأخرت فعلا ..يبدو من وقوفك هناك وسنك أيضا أنك لا تدرس في الثانوية كنت قادما لتسجيل أختك الريم التي سوف تصبح فيما بعد أقرب صديقاتي والتي تأخرت عن مقاعد الدراسة ثلاثة أشهر كنت ساهما في هاتفك تعقد ما بين حاجبيك بطريقة تهكمية، قررت أن أزور مكتب المدير لآخذ معي بعض الطباشير كرشوة لأستاذ العربية الذي دائما ما يشكو قلة الطباشير.. وعند باب المكتب تصادمنا و لوهلة خارج الزمن دار كل شيء حولي كان صداما غريبا يوحي بشيء ما، كان بسرعة البرق أجزم أن أستاذ الفيزياء العبقري يعجز عن تفسير تلك السرعة.. سقط هاتفك أرضا وتحطمت مرآته وسقط قلبي معه.. توترت كثيرا إنحنيت أجمع شظايا هاتفك الذي يبدو من ماركته أنه ثمين جدا.. حتما لا أستطيع تعويض ثمنه ولا التفكير في شراء قرينه ... لم أكن قط بتلك القوة حتى أسقط هاتفا ليصبح شظايا في ثوان أرجعت ذلك الى طول قامتك.. لم أكن أمزح انها قامتك من فعلت ذلك لبعد المسافة بين يدك وأرضية المكتب ..ظللت أجمعها وأنا أتمتم بكلمات اعتذار لا مفهومة ما أدهشني هو صمتك الطويل ونظراتك الثاقبة قلت في نفسي عندما طال صمتك ربما من الصدمة!! وسيندفع نحوي في أية لحظة و أستاذ العربية لن يدعني أدخل ها أنا سأتأخر نصف ساعة أخرى أو ربما ساعة من يدري؟

أخذت الهاتف من يدي بهدوء لتقول في هدوء مماثل: لا عليك إنه أمر عادي جدا.. كان منظري مضحكا حتما وأنا أفتح عيني بطريقتي الغريبة لأحملق فيك، قلت في نفسي ربما من الصدمة !!! كنت غبية حين فكرت بأن هاتفا مهما كان ثمنه يستحق أن يفقدك هدوءك الذي أعجبني جدا كما أزعجني أيضا فيما بعد قلتُ: أنا آتية لأخذ طباشير من المكتب أفسحت لي الطريق ودخلت لأبحث عن الطباشير وجدتهم فوق مكتبه وأخذتهم ...لتقول لي قبل خروجي ألا تعرفين أين يكون مديركم حتى الساعة؟

- ربما هو نائم !

ابتسمت وأنت عاقد حاجبيك بطريقة بهلوانية: علي اذن أن أرحل أم أنه سيستيقظ؟

- عليك أن تذهب لمكتب مدير الدروس ان كنت مستعجلا ..

نعم ..أنا مستعجل أود تسجيل أختي هنا في السنة السادسة عربية .

- اذهب اليه اذن مع أن الأمر قد لا يخلو من تعقيدات لأننا في الشهر الثاني والفصول هنا مكتظة..

أين هو مكتبه؟

- عن يمينك , ملاصق للمكتبة .

حسنا ..شكرا

وانسحت بهدوء كهدوئك قبل قليل وانسحبت أنا أتأملك قبل أن أتوقف وأنا أتذكر وجه أستاذ العربية وهو يلقي محاضرته المعتادة عن الاستهزاء بالوقت ومرض الكسل المتفشي بين التلاميذ.

أقف عند الباب أستمع اليه وهو يسأل إحداهن عن الأفكار الجزئية في نص أبي نواس، لم أسمع

جوابها بقدر ما سمعته يصرخ: أخرى ..طرقت الباب وأدخلت رأسي ليراني ويتجاهلني لدقائق ثم يستجوبني كعادته وعادتي في التأخر أيضا...

- كم الساعة الآن ؟

تتطوع احداهن للإجابة: التاسعة إلا ربع

- ما لذي أخرك؟ أم أنك تظنين أننا ننام الصبيحة !

عفوا أستاذ تأخرت بفعل ظروف خارجة عن إرادتي

- يرد مستهزئا يهز رأسه: النقل بالتأكيد ستقولين! لا نمتلك سيارات فارهة ونأتي في الوقت المحدد...

لا أستاذ جدتي مريضة ...واضطررت للبقاء بجانبها بعض الوقت.

تبتسم الفتيات وهن يدققن النظر الي اليوم جداً ! لست أدري لما تتهامس الفتيات فتتعالى الأصوات قليلا

ويقول أستاذ العربية مشيرا بيده: حسنا تفضلي.

أحقا أتفضل! أقول في نفسي لو كنت أعرف أن جدتي ستخلصني من المساءلة اياها يوميا لتدبرت الأمر باكرا ...حمدا لله ...ولجدتي.

دخلت لأجد الفصل مكتظ كعادته وكل الطالبات ينظرن إلي وكأنني ضيفة حلت جديدة عليهن كأنني لا أدرس هنا منذ عامين ...وكأنهن لا يعرفني .. تساءلت ما لذي يجري؟ وجدت مكانا فارغا في الطاولة ما قبل الأخيرة من الصف الأيمن ..لم يتسنى لي الجلوس مع البتول صديقتي كنا نتبادل الرسائل الورقية داخل الفصل وأستاذ العربية غارق في شرح خمرية أبي نواس.. الرسالة الأخيرة تقول فيها إن ملابسي اليوم جميلة لكن ليس عليَ! ألوانها متناسقة كما تقول لكن لا تليق بي !

إنها العاشرة يخرج الأستاذ وهو يخبرنا بأنه سيجري اختبار في الحصة المقبلة وعلينا المراجعة جيدا كما علينا التركيز على النحو...ترتفع الأصوات شيئا فشيئا لتعلو وتتمازج الفتيات ه ا كم يحببن الثرثرة! تشير لي البتول لنخرج قبل حصة الفيزياء المملة حسب قولها، البتول تكره الفيزياء جدا ولا تفهمها وأنا أكره الرياضيات جدا ولا أحضرها ونقاطي فيها لا تتجاوز عدد أصابع يدي اليمنى. في الأقسام الأدبية عادة لامجال لاستعراض عضلات المواد العلمية مهما كانت أهميتها ..خرجنا لتبدأ في نقد ملابسي.

لقد تعودت على الملحفة وعليك أن لا تخلعيها حتى وان لم يكن ذلك يرضي أهلك ...ملابس الزنوج لا تناسبك رغم أنك زنجية!!

- وأنا أخبرتك ألف مرة بأن هذه ملابسي وأعتز بها كما أعتز بهويتي وليس لباسي للملحفة انسلاخا من هويتي ...

وأنا أيضا أقولها للمرة المليون لا تبدين كالزنوج ربما أهلك وجدوك لقيطة وربوك ليكسبوا ثوابا ليس إلا وتطلق ضحكة عالية وتضرب كفا بأخرى ...لتلفت انتباه تلاميذ السنة السادسة أولاد من حولنا في الساحة فيتقدم عبد الله نحونا قائلا: مرحبا ساليمتا والبتول كيف الأحوال؟

مازالت البتول غارقة في ضحكها محاولة اغاظتي لأجيب وأنا أتجاهلها:

- بخير عبد الله ..

هل أجرى لكم _ المتنبي _ اختبار ؟

- لا لم يفعل .. أخبرنا أنه الأسبوع المقبل أما زلتم تلقبونه بالمتنبي ؟

بابتسامة ماكرة يجيب عبد الله نعم ولا تنسي أنك أول من أطلق عليه اللقب !
- نعم كان ذلك قبل معرفته، لكني توقفت عن مناداته هكذا عله يتوقف عن إحراجي دائما ...
أو علك تتوقفين عن التأخر والافتراء على جدتك ..
- من أخبرك ؟ ه ا نسيت الفتيات يعشقن الثرثرة !
ونحن نعشق الاستماع ...
تتدخل البتول ساليمتا هيا الباب سيغلق، ما إن نقف معك حتى تحدث مصيبة !
لم أكن أحدثك كنت أحادث ساليمتا , على فكرة لا تخلعي هذه الثياب ثانية انها تليق بك أكثر من الملحفة .. تبدين جميلة فيها ...
عبد الله احترم نفسك تباغته البتولّ !
لست أنت الجميلة أقصد ساليمتا ...
تمسك البتول بيدي ساحبة إياي وهي تحاول اخفاء حنقها وغضبها وأنا أضحك بشدة كذلك عبد الله.
لندخل بعد نظرات البواب المعتادة وأنا أقول خافضة صوتي انتقمَ لي عبد الله ....
****
إنها العاشرة مساء لايزال الشيخ جالسا في غرفته يتأمل السقف ساهما في نقطة وهمية يشعر بنبض غير طبيعي وملامح وجه فتاة زنجية شديدة السمرة ذات عينين صغيرتين وأنف صغير كذلك وشفتين كحليتين تحمل ابتسامة تجلب كل الأشياء حولها لتعلقها في الفضاء...تلك الملامح لا تفارقه هل يعني هذا أني أفكر فيها؟ يسائل نفسه!
- لا طبعا لما قد أفكر فيها؟
ما لذي أقوله إذا لم أكن أفكر فيها؟ كيف لملامحها أن تظهر أمامي بهذه الدقة؟ أو كيف لكلماتها القليلة ولغتها الفصيحة ألا تخرج أذني! أو الطريقة التي فتحت بها عيناها! ربما مجرد فضول ينتابني اتجاه تلك الزنجية الغريبة! وسيزول قريبا حاولت اقناع نفسي بذلك ...
سأتصل بسيدي عله يخرجني مما أنا فيه ...
أين هاتفي ؟
- ه ا الصدام ... وما خلفه الصدام !
الريم ...الريم أين أنت؟
تتقدم الريم بخطوات ناعسة تلك الفتاة كسولة جدا كيف لها أن تعيش بذاك البرود.
لا تدرس دراسة حقيقية ولا تساعد ولا تعمل إما نائمة أو متكورة خلف شاشة كمبيوترها الصغير!
وقفت بالباب تهز رأسها بملل ماذا تريد؟
- أود هاتفك سأجري مكالمة
أنت بلا رصيد .. أخيرا كسبت الرهانّ
- لا تتعجلي ...هاتفي تحطم !
ما لذي حطمه ؟
- لا يعنيك هات هاتفك وأصمتي ..
حسنا ...قالتها ورمته رمية بهلوانية وهي تبتسم ساخرة خذه إذن .
أخذت الهاتف وأخذت أفكر معه في ضرورة شراء آخر جديد..

اتصلت بسيدي
بادرني قائلا: أين أنت أيها اللئيم؟
- كيف عرفتني وأنا لم أتحدث بعد !
صمت قليلا أجابني وهو يضحك احساسي أنه أنت لا أعرف لئيما سواك ..
- حسنا ..فلتمر علي اذن
فليكن في علمك: لن أجلس في بيتكم ..
- أمي ليست هنا ..لكني لا أريدك معي في البيت أود أن نخرج نتجول بالسيارة أحس بفتور غير عادي ...
كنت أقول ما أقوله لسيدي وصورتها ماتزال محفوظة أمامي كأني التقيتها للتو! لم لا تكف تلك الزنجية عن التجوال أمام ناظري ؟! شيء غريب !
جلست بجانبه وأنا لا أفهم ما لذي أشعر به هل أنا مريض ؟ لابد أنها آثار الحمى دائما ما تجعل المرء يتوهم أشياء غير موجودة ...لكني لم أكن محموما لتلك الدرجة !
- سيدي ما لأشياء التي تجعلنا ننجذب اليها بسرعة باستثناء المغناطيس؟
انها الحمى يا صديقي !
- لا أمزح...
منذ متى تهتم للأشياء؟ دع الأشياء لي , أنت لا تهتم إلا بالرياضيات وتتبع الحركة ..
لو يدرك سيدي فقط مدى سرعة الحركة التي تعرضت لها هذا الصباح !
- دعك من الرياضيات وأجبني !
هناك أشياء عديدة ...
- مثلا ...
الفلسفة ..
- الفلسفة لا تجذب سوى المجانين أمثالك ...
والمجانين أمثالي هم من يدركون قيمة الحياة ....
- سيدي، دعني من الفلسفة الآن!
طيب ...الحب! أظنه يفعل ذلك، يدفعنا، يجذبنا نحو معترك ماَ ! وقد يكون منذ اللحظة الأولى ...
- كيف يفعل ذلك؟
إنه إحساس لذيذ، لايرينا العيوب إلا بعد الغرق فيه، ولا يغرق فيه الا الغواص الماهر، لا يدع من لا يدرك تناقضه ووجعه أن يتجول فيه ! يعرفه فقط من يدرك أنه كما هو جميل هو موجع ...قليلا ما تكون نهايته سعيدة كبدايته، الحب في بدايته كطائر محلق يبحث عن الحرية في كل شيء ويغني لحنا عذبا لا يستطيع من يسمعه إلا أن يتمايل و يرقص ! وفي نهايته يظل نفس الطائر لكنه غير قادر على التحليق لأن شيئا ما حدث لجناحيه ..عاجز هو عن البحث عاجز عن الحركة .... الحب يا صديقي ليس عالما فقط إنه عوالم، مع الحب: تعبد، تسافر، و تحلق، تغني، وترقص. مع الحب تكون بريئا رائعا ..تطهر روحك وينهض قلبك ليتفاعل مع العالم من حولك ليصبح وجهك مرآة ناصعة ...الحب يا صديقي يجعلك ترى يبت أهلك قصرا من قصور الحمراء وحيكم قطعة من غرناطة ونواكشوط مدينة من زمن آخر ...زمن لا يعرف أهله سواه لغة.
- من يسمعك يظنك جربته من قبل ؟!

من قال انني لم أجربه؟
- ليس منذ عرفتك ...
اقرأ يا صديقي لتجرب الحب دون مغناطيس !
- أظن أن المغناطيس جذبني دون الحاجة للقراءة.
رجعت الى البيت بعد منتصف الليل، السكون يغلف المكان، أمي نائمة في غرفتها وخالتي أيضا.. الريم نائمة في الصالون الكبير، يبدو أنها كانت تتابع التلفاز ونامت هكذا على احدى الأرائك، أيقظتها لتنام في غرفتها، وسألتها عن أبي فأخبرتني بأنه لم يعد بعد ..سقطتُ مكانها على إحدى أرائك الصالون وأغمضت عيني داعيا النوم ليداعبهما ...وأظنني نمت.

****

بعيدا عن السكون الذي يضم منزل أهل أحمد سالم سيدي، كانت الميناء تعج بالضوضاء.. سيارات تلاعب أخرى في ساحة عامة، شبان يسيرون في الشوارع يحركون أيديهم بطريقة راقصة، وهم يتحدثون يضعون سماعات كبيرة "وبنطالاتهم" تكاد تسقط تحت أفخاذهم.. في أيديهم ورقابهم سلاسل صغيرة وأشياء أخرى ...هناك في تلك القطعة الأرضية جمهرة كبيرة حول مكبرات صوت مزعجة تبث أغاني زنجية والأغلب أنها لمغني سنيغالي مشهور. و أمام البقالات والمقاهي الصغيرة المعروفة ب(سيبير) نسوة يبعن الأطعمة السريعة وبعض المشروبات...في منزل قديم الطراز سقفه من (السنك)مطلي بالأزرق يجلس الأب الستيني الحاج سليمان كامرا مرتسمة على وجهه ملامح الجدية يتحدث الى أبنائه التسعة وزوجاته الثلاث.. يواصل حديثه والكل ينصتون إليه باهتمام بالغ كعادتهم.. كانت أمه الجدة الكبيرة (مامّ) تجلس في بهو المنزل تبحث عن هواء نقي ينعشها بعيدا عن دخان البخور الذي تضعه زوجة ابنها الأولى_ دينبا _ في غرف المنزل الصغيرة مع غروب شمس كل يوم.. تنادي الجدة على حفيدتها ساليمتا التي ضاقت ذرعا بمجلس العائلة الأسبوعي فأتت تحمل ابتسامة نقية كنقاء ذاك الهواء الذي يهب نسيمه في صمت لتحادث جدتها وتجلس بجانبها حتى تستطيع النوم فالميناء مقاطعة صاخبة لا يزور النوم بيوتها بسرعة كبيوت العاصمة الأخرى.

ما بين متناقضات المجتمع الموريتاني وتعدد الأعراق فيه والأعراف كان يعيش الاثنين: الشيخ وساليمتا، كل في مجتمعه وحسب عاداته وتقاليده لكن ساليمتا لم تكن تجهل المجتمع البيظاني بقدر ما كان الشيخ يجهل المجتمع الزنجي بكل ما فيه .. فهي تعرفه بحكم احتكاكها به وتتقن الحسانية جيدا بل وتعرف قبائله ..وبحكم دراستها تربطها علاقة حب باللغة العربية ..فهي تعشق تلك اللغة جدا . لم يكن الشيخ مثلها في ذلك فهو يجهل المجتمع الزنجي لا يدرك سوى أنهم أغراب يشاركونه الوطن الواحد، لهم لغتهم الخاصة وزيهم الخاص ومناطقهم الخاصة أيضا فهو لم يصادق أحدهم من قبل بل لم يكن ليدرس في مدارس يرتادها الزنوج. وعندما ولج للجامعة رأى بعضهم لكنه لم يحتك به ..ولم يرد ذلك ..هو أصلا لا يهتم لثقافة مجتمعه حتى يهتم بثقافة غيره ...

****

صباح الأثنين لم أتأخر كعادتي لأن أستاذ العربية اليوم سيجري اختبارا ... الفتيات متوترات قليلا كعادتنا عند كل اختبار، والكل يشكو من النحو ..البتول تأخرت اليوم ..دخلت فتاة شديدة البياض ميالة الى قصر القامة أكثر من طولها ..ممتلئة الجسم، تلبس ملحفة بنفسجية تخالطها زهور صفراء، تحمل حقيبة سوداء، وتنتعل حذاء ذو كعب عال، أسود أيضا، وجهها بسيط خال الا من خطوط الكحل في عيناها الواسعة ...قلت في نفسي يبدو أنها جديدة جلست مكان البتول بجانبي ..ويلي إن أتت البتول

ووجدت أخرى تجلس مكانها، لم تعرني انتباها ولم أفعل ! مر وقت قليل دخل الأستاذ وبدأ يكتب على السبورة .. اختبار في اللغة العربية. أخرجوا الدفاتر والكتب الى الأمام بدأنا نضع حقائبنا أمام السبورة وبدأ يوزع علينا ورقة الأسئلة نظرت الي بحيرة وتساءلت: هل هذا اختبار؟ هذا يومي الأول! ماذا درست حتى يختبروني؟

ويحها ان سمعها أستاذ العربية، إذن ماذا يفعل هو منذ ثلاثة أشهر؟ هل كان يمزح؟

قلت لها في هدوء تأخرت جدا بدأت الدراسة منذ زمن .. أخبرتني أنها كانت في البادية تقضي العطلة ..ولم تسجل الا في الأسبوع الماضي ..قلت يبدو النص سهلا عليك أن تجربي ..بدأنا العمل ولم تأتي البتول بعد ..التاسعة إلا عشر الدقائق والبتول تدق الباب بتوتر يقابلها وجه الأستاذ وهو يتأفف من تأخرها ...يقول حانقا خافضا صوته (إذن أصابتك ساليمتا بالعدوى) تضحك الفتيات يصرخ قائلا :صه! هيا النص لا يحتاج إلا عشر دقائق لمن يدرس.

كان النص لبشار بن برد يهجي فيه أمير عباسي وكان سهلا ..أسئلته متواضعة أوشكت على الانتهاء حينما نظرت الى ورقة الفتاة التي تجلس مكان البتول وجدتها بيضاء إلا من اسمها وهي تتأملها بصمت فقلت : اكتبي :

غرض النص هو الهجاء.

وبدأت أملي عليها وأنا أخفض صوتي بقدر المستطاع لألا يلمحني أستاذ العربية.

انتهينا نظرت الي ثم الى ورقتها الممتلئة وابتسمت ابتسامة واسعة لازلت أذكرها، خرجنا معا... وما إن تجاوزنا عتبة الباب حتى عانقتني وأخذت تصرخ شكرا.. شكرا، كانت تعانقني وكأنها تحملني وتدور بي، كنت أضحك من فعلها قلت اهدئي لا شكر بين الزملاء وهذا عادي جدا.

ولم أقل لا عليك، رغم أنني أذكر صاحبها جيدا ...قلت ألا تعرفين أي شيء عن بشار؟

- لا !

كيف وأنت في السادسة عربية

- في الحقيقة لم أكن مهتمة للدراسة كلها ! السنة الماضية لم أزر فصلي إلا ثلاث أو أربع مرات ... ولولا حرص أمي لحصولي على الباكالوريا لما درست !

عليك أن تدرسي ....

- سأفعل صدقيني أعجبتِني جدا ...كيف تتقنين العربية هكذا؟.... أنت ... أقصد ..يعني زنجية !

ضحكت بسبب ارتباكها : درستها منذ صغري وأحبها جدا ..

- سحبتني من يدي وقالت أنا أيضا أحببتك عاليا ...

تلك المجنونة !

مضت الأيام سريعا أصبحت أنا والريم صديقتين كنت أرى فيها الجنون والشغف الذي افتقدته منذ صادقت البتول فالبتول بطبعها هادئة لم تمر صداقتنا بردا وسلاما عليها قاطعتني لأيام بدعوى أنني (فراية) وفضلت عليها تلك الدخيلة المهم أنني راضيتها سريعا فأنا أعرفها كل ما تقوله تنساه في لحظة ! ألحت علي الريم كثيرا ودعتني لزيارتها لأساعدها في المراجعة كما تقول ..لم أستطع القول لأبي أو أحد اخوتي لأنهم سيمنعونني حتما ! قلت لجد تي (مامه) أخبرتها ستزورني هي الأخرى .... ولم تمانع كما كنت أتوقع!

****

مساء يوم الخميس مازالت الشمس في كبد السماء لكن أشعتها تبدو خجولة بعض الشيء ..تهيأت

لزيارة الريم في منزل أهلها في لكصر من (فوگ) دخل بي سائق التاكسي إلى تلك الأماكن من العاصمة التي أراها لأول مرة.. يبدو أنه حي راقي أو شبه راق وإن لم يخلو من بقايا قمامة !!! توقف بي عند المكان الذي وصفته لي الريم في الهاتف وجدت نفسي في مكان أقل ما يقال عنه أنه صامت جدا ..كل البيوت متراصة ومعظمها طابقين ..تبدو متشابهة وكأن مهندسها واحد !!

كان الشيخ يتأهب للخروج قاصدا المعهد الذي يُدرس فيه اللغة الانجليزية كل مساء خميس وثلاثاء، وضع القليل من عطره الفرنسي-الغالي- ووضع ساعته الكبيرة في معصمه الأيسر وحمل مفاتيح سيارته والهاتف الجديد باليمنى تلقته خالته _ اغلانه _ وهي جالسة في باحة المنزل الكبيرة بيدها طبق يحوي بعض المكسرات والحلويات بداخله ملعقة تتابع فيلما في التلفاز كعادتها. سألها : أين أمي؟

- أين ستكون ؟ في سوق النساء ...مكان عملها –أضافت- !

تنهد وهو يتجاوزها ويسائل نفسه: أمن المعقول أن يعيش أحدهم في منزل لا يرى فيه أبويه إلا أيام العطل وأوقات النوم ... أنا وتجاوزناه! ولكن ماذا عن تلك المسكينة، تلك الفتاة المراهقة! ألا تستحق الرعاية ولو قليلا ....اصطدمت به الريم وهي تهرول نحو الباب وهي تضع هاتفها على أذنها وتقول : قفي مكانك أنا آتية ...

لم تعره انتباها هو يعرفها! هكذا هي كما تقول خالته العانس (مرموحة) تقدم نحو الباب متناسيا أفكاره عن والديه بسرعه.... إذا بالريم تعانق فتاة ما ! وترحب بها هاتفة .... لحظة ! منذ متى والريم تصادق الزنوج !؟؟ تركتها وهي تضحك وترك هو مفاتيحه لتربة لكصر ! وأخذ يتأملها وهو يتمتم بابتسامة لا يدري كيف ظهرت فجأة ؟ ولا متى؟: إنها الزنجية ذاتها!

أهلا بك عزيزتي تفضلي ..

نظرت ساليمتا أمامها لترى ظله يراقص تربة لكصر التي تقف عليها لأول مرة وهو يسد باب المنزل أخذ يتأملها ببطء ..وأخذت تهرب بنظراتها عنه خوف التلاقي ! ولأشد ما تخافه وتهابه !! أفسح لهن الطريق وهو يقول: أما زال مديركم ينام الصبيحة؟

أجابت وهي تخفي ابتسامة جذابة: - أما زلت أنت أيضا تقف بالأبواب تسد الطريق؟!

مشكلتي مع الأبواب لم تبدأ الا حين رأيتك !.. أقصد حين التقينا ذاك اليوم ..

- أمتأكد أنت؟

متأكد جدا ... لكني أعتبرها مشكلة لذيذة لأنها تجعلني أأأأ..... أقصد هل سبق وأن صادفت ذلك النوع من المشاكل !

- ربما! لست أذكر .... مشاكل لذيذة ...نظرية جديدة !!

قهقه عاليا وهو لا يستطيع تحديد ما السبب في ضحكة كهذه ...أهو كلماتها وتهكما؟ أم وجهها البريء؟ أم ابتسامتها الجذابة؟ أم ملامحها الملائكية ..؟ لم يقرأ أبدا عن ملاك أسمر ... ولم يسمع عنه لكنه وجده ... إنها تقف أمامه ...ان مجرد النظر اليها يجعله لا يتوقف عن الابتسام ..كيف لهذا أن يحدث ! لا يدري.

أتعرفون بعضكم؟ تتدخل الريم وملامح المفاجئة تلوح في عينيهاّ !

يجيب الشيخ: قليلا! أو ربما كثيرا ...قال في نفسه.

****

لم يكن ذلك المساء لكليهما مساء يمكن تجاوزه ببساطة ..كان خاصا جدا ومربكا ومصيريا.. بقدر

ما فيه من مشاعر خرجت الى العالم ..مشاعر ستواجه التيه والبحر حتما ! ستواجه أمواج العادات وعواصف التقاليد وزوابع الأعراف! كان كل من ساليمتا والشيخ يجلس في مكان مختلف جدا عن الاخر وكان كل منهما أيضا يدرك كنه تلك المشاعر التي تنتابه ...وحقيقة ما يتخللها من قنوط ..هو جالس في مطعم مشهور بضواحي تفرغ زينه بأرقى أحياءها ..يوحي مظهره الخارجي فقط أن رواده من الأغنياء والأغنياء فقط...يجلس في ركن بعيد نسبيا هادئ ...يفكر فيها.. إنه لا يعرف اسمها حتى! كل ما يدركه أنه حين راها تغيرت الأشياء من حوله فجأه ... وأصبح يبتسم كثيرا وبلا سبب.. أصبح يرنو الى الوحدة والهدوء بعد ما كان يقضي الليل كله بالخارج مع رفاقه ..شعر باضطراب شديد ..تعلو نبضات قلبه كلما تذكر ملامحها وتهجم أحاسيسه عليه فجأة ! كل ما يعرفه أنه منذ راها وليس هو هو ! لم يكن أبدا كذلك... هو الذي لم تحركه أية فتاة من قبل! حتى منذ كان مراهقا. إنه يعيش وسط مجتمع أنثوي بامتياز ...فتيات جميلات ببياض بشرتهن ونعومة أياديهن وجاذبية شعورهن ..أو الذي يظهر منه من تحت الملحفة ! بنات عمه ..خاله ..صديقاته ...فتيات الجامعة ..رفيقاته في البنك ...قريباته في البادية ..وفي الخارج أيضا ..يستطيع أن يحبهن كما يحلو له ويتزوج أجملهن إن شاء ..لكنه أخطأ في الأولى يمكنه الزواج منهن ولكن ليس حبهن ! فذاك ليس بيده ولا بأي عضو آخر من جسده! ليس باستطاعتنا أن ندير دفة قلوبنا ولا أن نوجه مشاعرنا ..ولا إجبارها على ما لا تريد. كل شيء يمكن التحكم فيه عدا ..قلوبنا ..إنه قلبه ..مشكلته ذلك الذي لم يتحرك لأي فتاة من قبل ها هو ذا يتحرك ويتحرك بل يركض ويتزحزح من مكانه لأجل زنجية ! هي ليست بذاك الجمال الأخاذ! انها بسيطة جدا ..

بسيطة في كل شيء !

في الجمال ... النقاء ... المظهر ...الكلام ...بل وحتى الثياب ... ورغم ذلك أخذته ! أخذته بعيدا....

****

كانت ساليمتا تجلس فوق سطح منزل خالها (مامادو كي)قرب سوق الميناء منزل أباها يبعد كيلومترات عدة من هنا لكنه تعشق الجلوس فوق السطوح مساء ومنزلهم بسيط ... لا يمتلكون سطحا كما أشياء أخرى في حياتهم .جلست وهي تأمل أن لا تراه ثانية وأن لا تسترسل في مشاعرها اتجاهه ..فهي تظن أنه لن يحبها ! ولم يفعل؟! فتاة مثلها من تكون بالنسبة لفتى أبيض مدلل ! يكفي أنه أبيض حتى لا يفكر فيها ...وان فعل ! وهي متيقنة أنه لن يفعل ...لكننه مجرد احتمال .. أو فرضية فسيفسد ذلك مشروع والدها بتزويجها من ابن عمها .. وليس ذلك وحده فسوف تواجه سخط كلا المجتمعين ...هي متأكدة انها لو فعلت وفعل لن تعيش حياة طبيعية كما كانت تفعل من قبل !

مر شهر على تلك الزيارة التي قامت بها ساليمتا لمنزل الريم ..وأكدت لنفسها أنها لن تعيدها فالريم لم تزرها بعد ..ولم تبرر سبب ذلك وهي لم تضغط عليها !

****

كان سيدي يقف على الشارع المقابل لمنزل أهل أحمد سالم سيدي ينظر اليه بعينين حزينتين تحملان الكثير والكير من مشاعر العشق والألم والظلم ...اتصل بالشيخ ...أين أنت ؟

- في المنزل؟

ألا تلاحظ أنك تجلس هذه الأيام كثيرا في المنزل وتلك ليست عادتك !

- أعلم ... سنذهب اليوم

سنفعل ..اخرج أنا أقف في الشارع المقابل
- ادخل أنت وانتظرني في الصالون سأغير ملابسي ثم نخرج
لا غير ملابسك وأنا أنتظرك هنا !
- لا يوجد البيت سواي والخادمة !
قلت لك غير ملابسك ...لا تضيع الوقت في جدال عقيم !
- حسنا ....
لم أستطيع اقناعه بالدخول أنا أعرفه جيدا لن يدخل منزلنا بعد ما حصل منذ شهور خفت كثيرا على صداقتنا أن تنجرح مثلما جرحت أمي وابي كرامته ومشاعره ذات ليلة مشؤومة عندما جاء بأهله طالبا يد الريم للزواج كنت سعيدا جدا لأجله ...لأنه يستحق فتاة كأختي وهي تستحقه ..هو شاب مكافح بنى نفسه بنفسه كان دائما يسير نحو أحلامه بخطى لا تزلزلها العاصفة ..منذ كنا صغارا كان حريصا دائما على التفوق كان يقول جملته المشهورة (سأدرس لأجعل والداي يشعران بالفخر سأجعل من اسمي مفخرة لعائلتي حتى بعد رحيلي) فعلا هو يسير على ذلك المنوال تفوق علينا جميعا في الباكالوريا حين كنا مراهقين ومنحته الدولة الى احدى الدول الأوربية لدراسة الطب هناك ! جاء يحمل سنوات من الغربة والجد.. وتخرج جراح قلب من أشهر الجراحين في وطنه يعمل الان بمستشفيات عدة كبرى في البلاد ..لم يفتح عيادة خاصة بعد لأنه كما يقول سيعوض والديه واخوته أولا سنوات الفقر والعجز ..سيعوض أمه السالمة عن عمل سنوات كثيرة في خياطة الخيام وسيعوض أباه بكار عن شقاء سنين يعمل نجارا ..لن ينسى ماحيي صورته صباحا وهو يحمل عدته للذهاب إلى أكلينك ..للبحث عن معين أو طالب عمل ...هو فعلا لم ينسى ويفتخر أن والداه لم يكونا متعلمين أبدا لكنهما صبرا حتى تعلم هو وكبر وصارا رجلا يمتهن أشرف المهن على الاطلاق ... تسكنه هوايات كبيرة وكثيرة... سيدي عاشق للقراءة والفلسفة التي يملؤ رأسي بها ..كان سيدي رغم كل ذلك يحمل ابتسامة لا تفارق شفتيه حتى تلك الليلة التي رفض فيها والدي خطبته لأختي بدعوى صريحة لم يضمراها وهي أنه من قبيلة لا تصاهر قبيلتنا كما أنه ليس (ولد خيمة أكبيرة) وأمه حرطانية ...فكيف له أن يجرؤ ويخطب ابنة أحمد سالم سيدي؟ كيف!! أمي لا ترضي حتى عن صداقتنا ولا تخفي ذلك أبدا، رغم معرفتها بأخلاقه وعلمه! لكن كل ذلك في مجتمع كمجتمعنا ضرب من العبث مقابل النسب والحسب !! أعرف جيدا أن ذلك الرفض غير به أشياء كثيرة لكنه يكتمها حتى عني ...لم يحدثني قط في الموضوع...حادثته مرات عدة وشرحت له الوضع القائم وأفهمته ...وأني ليس باستطاعتي الوقوف ضد والداي لأن الوقوف ضد قراراتهما يقتضي الوقوف ضد مجتمع بأكمله ...لا يمكنني الصمود ضد التيار لكن يمكنني الابتعاد عنه .... هو يفهم جيدا! يفهم حتما ذاك المجتمع لأنه ببساطة يعيش فيه! بينما أنا ساهم رن هاتفي واذا به سيدي .... أعلم لقد تأخرت عليه .....

****

كنا نجلس في ساحة الثانوية الواسعة أنا والبتول والريم ..كل واحدة منا تفضفض حينا ..لتلحقها فضفضة الأخرى كانت الريم رغم ما تظهره من مرح وجنون حزينة شيئا ماّ ! وبشئ ما ! لم أسألها عن الحزن الذي يلوح في عينيها ..كانت تتحدث عن أمها تارة وأباها تارة أخرى ...وتعرج بالحديث على أخيها وكلما نطقت إسمه ..نطق قلبي بأشياء كثيرة أبرزها ابتسامة كتلك التي تعلو وجوه ناجحي الباكالوريا ... تقول إنه أخبرها بأنها لم تكن مهتمة بدراستها قبل الان ويبرر ذلك بمحيطها بمن فيهم صديقاتها الجديدات وخصوصا ساليمتا!

- هل حقا يقول ذلك؟
وما بالك فرحة بما قال ! تتدخل البتول ..
- ليس فرحا .بقدر ما هو شعور بالتميز !
تضحك الفتيات ساخرات مني وأضحك معهن لكن ليس لنفس السبب.
تسير الأيام بسرعة كعادة نهاية كل سنة دراسية وكأن الزمن يسابقنا ليتجاوز لحظات كانت دوما الأجمل في ذاك الشريط ...يوغل الحب في قلبيهما وكأنه ينحت تمثالا تحددت ملامحه ..يدركان جيدا أن كل منهما أحب الآخر دون أن ينطقا بكلمة واحدة ولأول وهلة ...أعليهم أن يسموا ذلك قدرا وانتهى ! إنه قدر قلبيهما أن يتعلقا ببعض بهذه الطريقة وأن يتوقا لبعض ولكن هل من الممكن أن يكون قدرهما أيضا أن يستمرا معا ! ؟ ذلك قدر لم يكشف عنه بعد.

****

روائح أطعمة مختلفة تفوح من مطبخكم؟ أعليها أن تفعل ذلك كل مرة ؟ حفظها الله لي ..
رماني سيدي بالوسادة : حفظها الله لك وحدك أيها الأناني ألست أولى ؟
- يخيل اليك فقط !
حسنا اكتفي بالرائحة اذن لأنك لن تذوقه!
- من سيمنعني ؟ أنت؟ وأمي موجودة! ...تحلم، أليس كذلك يا أمي؟ ...
تجيب والدة سيدي _السالمة _ وهي تلوح بكلتا يديها وعلى شفتيها نصف ابتسامة: طبعا لا يستطيع.. إن لم تأكله أنت _ (من سيأكله إذن)
- وسآكل معك لن اكل معه ! أخاف أن يأكلني ..
وأنا أيضا أخاف أن ينقل لنا عدوى مرضاه ....
إذن فقد كونتم جبهة ضدي ..سيريكم الطبيب ما هو فاعل ...
تتعالى ضحكاتنا ...هكذا كنت دائما تسكنني السعادة والأمل كلما زرت بيت صديقي سيدي ..كانت والدته السالمة أمي الثانية القادرة على حبي دائما بلا مقابل .
بعد أن أنهينا وليمتنا تلك كان سيدي يتحدث إلي بجدية لم أعتدها منه عندما أخبرته بحقيقة مشاعري اتجاه ساليمتا، يخبرني هو بضرورة السعي في طريق هذا الحب وعلى بذل كل جهدي وجهد غيري لإجبار كل شيء يحيط بنا ! علي أن أتحدى والداي ولأول مرة ..فأنا الآن لم أعد ذاك المراهق، أقف على أعتاب الثامنة والعشرين وأعمل في أكبر بنوك البلد ويمكنني تكوين حياة مستقلة حتى وان رفضوا ... وهم سيرفضون لامحالة ختم سيدي !
- تظنني أشك فيها ! طبعا سيفعلون
جيد أن تدرك ذلك ..
أخبرني هي هل تعرف مشاعرك اتجاهها؟
- لا أظن ..
وأنت , هل تعرف مشاعرها اتجاهك ؟
- لا أدرك حقيقة مشاعرها فنحن لم نلتقي الا مرتين ..كان الأمر سريعا أليس كذلك ؟ لكني أجد عبارات متفرقة تسكن عينيها عندما أنظر اليها وابتسامة زهرية تنطق بها شفتيها ربما تحمل شيئا ...ه ا من ابتسامتها ..
أنا لم أقل لك تغزل بها سألت سؤالا ويبدو أنك تجهل اجابته! وهي التي ستحدد إن كنت ستواجه أم

لا؟
- سأمتلك تلك الاجابة قريبا كما تمتلكني صاحبتها ..
كنت أستغرب نفسي وأنا أضع الخطط وأرسم المشاريع لحياتي معها أفكر فيها ليل نهار ..وأسرح بخيالي لبعيد بعيد جدا .كانت خالتي اغلانه أول من أخبره من أهل البيت بحقيقة ما أنوي عليه ..أخبرتها أني أحب فتاة ما! وسأقدم على خطبتها قريبا !
من هي ؟ ولا تقل لي احدى بنات عمك !
- لا ليست احداهن ...والا لقامت تكبر بالأمر!
اذن من هي ؟
- صديقة للريم !
أيهن ؟
- ساليمتا !
من ؟ سالي ماذا ؟ وانفجرت ضاحكة كيف؟ هل جننت أم تظن أنك ماتزال مراهقا !؟
- لا تسخري أنت أول من أخبره من هذه العائلة عليك تفهم الأمر ومساعدتي ..
مساعدتك على ماذا يا مجنون ؟ هل تود أن تطردني تكبر من بيتكم وأجد نفسي في الشارع (عانس تتسكع في شوارع أنواكشوط)
- ابتسمت رغما عني : من قال أنك عانس ؟
لا تنسى أني أكبر منك بثلاث سنوات وها أنت ذا تود الزواج من سالي !
- ليست سالي بل ساليمتا ...
أيا كانت ..أرجوك فكر في الأمر جيدا وراجع نفسك أنت لا تعيش في غاب تخيل مدى الورطة التي ستضعنا وتضع نفسك فيها !
- لست هنا لأتراجع عن قرار أخذته أود منك مفاتحة تكبر في الأمر وهي ستدعوني حتما للمساءلة!
أتعني أنك تود فعلا الزواج من زنجية!
- نعم أود الزواج منها.
لا أصدق ..
- صدقي اذن !
لماذا ؟ أهي مغامرة جديدة ..أم رهان مع الريم ؟ أم ماذا ؟ أفهمني !
- لأني أحبها وكفى !عليك احترام ذلك وتقبله !
حب ...أي حب هذا الذي يجعلك تترك بنات عمك (الشبيبات) وتتزوج من زنجية ..أي حب هذا الذي يجعلك تخرج على عادات وتقاليد أهلك وقبيلتك ؟ بل الأدهى أن تألم والديك بما ستفعل ...
- صدقيني هو الحب وحده من يفعل ذلك كيف لي أن أشرح لك كل تلك المشاعر التي تتجول داخلي بلا حظر ل يمكنني تجاهلها والمضي أنا حتى لا أعي كيف حصل ذلك ولا متى ولا أين ؟
لا داعي لأن تشرح لي أي شيء بل اشرح لأمك !
حينها فهمت أشياء جديدة واضطررت لمقابلة أمي لوحدي ومفاتحتها في الأمر أخيرا علي أن أخرج من صمتي وأواجه الأمواج ..

****

الساعة السادسة مساءا اليوم يوم السبت هو عطلة تكبر الوحيدة تقضيه في البيت عادة قررت أن أفاتحها في الأمر هذا اليوم ..وجدتها جالسة في غرفتها ابتسمت عندما رأتني قادم نحوها ه ا كم افتقد تلك الابتسامة لأيام وأيام ..وضعت يدها على ظهري حاولت قدر المستطاع أن أبتسم وأبدو طبيعيا وأتحدث وسط التوتر الذي يحيط بي ..سأخبرك بشيء نويت على فعله أرجو أن يعجبك !

نظرت الي طويلا وهزت رأسها بابتسامة قررت الزواج أخيرا!

كيف للأمهات أن يمتلكن تلك القدرة على فهم أبناءهن ...

- نعم قررت ...وأتمنى أن يعجبك قراري

طبعا سيعجبني منذ فترة وأنا ألح عليك للزواج أنسيت؟

- لا لم أنسى

لماذا لا يعجبني قرارك إذن؟

- لست أقصد فكرة الزواج بحد ذاتها بل الفتاة! أقصد التي اخترتها

أشك في أنها إحدى بنات عمك! لا تردهن

- لا ليست احداهن ..

من تكون اذن ؟

-إحدى صديقات الريم

ماذا ؟ صديقات الريم ..ليس لديها صديقة تناسبنا ! زينب ومتزوجة ..الزهرة وتعرف قبيلتها ! خديجة ! ستجلبها لكي تخط الحناء على يدي أم ماذا ؟حتما لا تفكر في جلبها لبيتنا كزوجة لك .

- لا يا أمي ليست احداهن ! لديها صديقات جدد

ه ا لقد رأيت احداهن منذ فترة !

- أمي أنا جاد في هذا الزواج ..

أخبرني من تكون أولا ؟

- هي ...

نعم .. من تكون ؟! ألن نعرفها مثلا اذا كنا سنخطبها لك ! مابك ؟

- هي ..تدعي ساليمتا

قذفت بحروف اسمها خارجا ليتلقاها وجه أمي وقد بدأ يفقد لونه الطبيعي وكأنه صحراء ترجو المطر منذ زمن ..كنت أريدها أن تنطق أن تقول أي شيء عدا سكوتها المقلق ونظراتها الحادة ومع كل ذلك التوتر الذي كان يحيط بي أحسست بقوة لا أدري من أين أتت ؟ لكني أحسست بها ..

سالي ! ساليمتا ..

وأخيرا نطقت ..

- نعم يا أمي اسمها ساليمتا ..

حقا ! أهي احدى النصرانيات اللاتي يعملن معك في البنك !

- لا هي موريتانية ..

قلت من تكون ؟

- صدقيني لن تعترضي على قبيلتها ... انها زنجية

انفجرت أمي ضاحكة عكس كل توقعاتي وانفجرت القوة التي أحسست بها داخلي ..قالت:هل لم تعد كمبا تطهو السمك جيدا حتى تأتينا بزنجية ؟

الشيخ دعني أرتاح اليوم عطلتي اليتيمة إن كنت تنوي الزواج حقا نخطب لك احدى بنات عمك ! أو فكر في غير كمبا!

****

باتت الامتحانات قريبة جدا وساليمتا منهمكة في الدراسة كما التفكير في رحيل البتول التي ما إن تنتهي الامتحانات حتى ترحل إلى البادية ...

صباح التاسع عشر من يونيو الساعة السادسة يجلس الشيخ شاردا على سطح المنزل يراقب السحر يفكر في كل ما قالته أمه حول زواجه من ساليمتا وكل الأفكار تتدافع في رأسه وتتراقص أمام عينه في تلك اللحظات قرر أنه سيخطب ساليمتا اليوم ..قرر لوحده وسيمضي لوحده ..عله ينتصر لوحده ..أو يهزم لوحده ... حسنا إنه قرار نهائي ..

دخلت البيت فواجهتني ملامح أبي التي لم أتبينها من شهر..

كيف حالك ابني؟

-بخير ..والحمد لله

كيف تسير أمور العمل ؟

-على ما يرام !

أما آن لك أن تساعدني في عمل البورصة ؟

-تعرف لا أفهم في تلك الأعمال كما أن عملي يشغل كل وقتي ..

ه ا عذر أعرفه جيدا !

وتجاوزني ملوحا بيده ..أرسلت لريم رسالة :أرسلي لي رقم ساليمتا !

بعد ثوان دخلت علي الغرفة مندفعة كالصاروخ

-ما الذي تريده؟

رقم ساليمتا !

-لماذا؟

لا يعنيك ..هاتي الرقم !

-كيف لا يعنيني ..انها صديقتي

وعليه !

-ستخطبها اذن كما قالت اغلانه ! ودون موافقة أمي

سأفعل !

-أمتأكد ...؟

هاتي الرقم وكفاك ثرثرة ..

-حسنا هو ...

كانت مام جالسة جلستها اليومية في بهو المنزل ناثرة أقمشة حولها وبيدها صحن كبير تتحرك داخله حبات أرز سميكة ..بجانبها تجلس ساليمتا بيدها كتاب ...اليوم أول أيام العطلة ..وقد بدأت تشتاق للثانوية والبتول والريم .

ساليمتا تعالي أسكتي هاتفك !

-حسنا أخي أتيت..

إنها الريم ...لم أصدق نفسي حين انتهت المكالمة لم أفهم شيئا حين كانت تتحدث كانت تصرخ

سمعت كلمات متفرقة ..الشيخ ..خطبة ..تكبير ...يحبك ...لم أقل شيئا لأني بالفعل لم أستوعب شيئا حين قطعت الخط رتبت تلك الكلمات داخل رأسي الذي يضج الان بالأوهام وكونت منها جملا قد تكون فعلية وقد تكون مفيدة ! يكفيني من كل ذلك جملة واحدة :أنه يحبني وكفى ! خائفة أنا من ما هو قادم ..من كل شيء قد يفرقنا وقد يجمعنا أيضا ! ...إنه هاتفي من جديد

ألو

-لن أقف بالباب هذه المرة ..سأدقه لعلكم تفتحون !

الشيخ ..

-أعيديها مرة أخرى !

ه ااا أقصد ..كيف ..حال الريم

-الريم ...بخير هل ستفتحون الباب أم ...؟

عادة لاتترك الضيوف عند الباب !

-لكني ضيف مختلف ..!

ولو ..بالتأكيد سنفتح ..ولكن ..

-لكن ماذا ؟

ما بعد الدخول !

-خمني اذن ...

لست أظنه بالمطمئن !

-على الأقل أحسن من وضعي !

ما الذي حصل ؟

-من سيئ الى أسوأ

أخبرتني الريم بشيء كهذا ..

-نعم لكني قررت ولن أتراجع عن قراراي أعلم جيدا أن هذه البداية ليست بالحسنة ولا المبشرة لكنها أمام خيار أوحد نعرفه تصير الحل .عليك اذن أن تدعيهم يفتحون الباب لي ودعي ماوراء ذلك علي !

ساليمتا ...!

نعم

-ماذا قلت ؟

سأحاول

-لا ..بل جاهدي ..

حسنا !

-أقول شيئا ؟

قل !

-أ...أحبك ...أتعرفين ذلك ؟

.....

-ساليمتا ..أين أنت؟ هل أحادث نفسي ؟

لا ..أنا هنا ..أقصد سأحاول

-تحاولين ماذا؟
أن أدعهم يفتحون الباب لك وانفجرت ضاحكة ...كان لرنين ضحكتها هذه المرة وقع آخر ....
-قلت :
منين ال يضحك ذل عزيت +++ ولي لنوبة نترجه
تمر البطحة وتمر تشيت +++ تمر ودان وتجكجة
وأخذت أضحك ...هل فهمت شيئا ؟
-بعض الشيء ...وسأسألك عن البقية لاحقا !
أتمنى أن يكون الليلة بعد أن يصير كل شيء كما خططت !
انه القدر ذلك الذي يجمع قلبين من مكانين مختلفين جدا ..ليس الاختلاف سيئا انه الموحد أحيانا... والعنصر المصعد للحياة لكن الاختلاف في مجتمع كمجتمعنا وفي هذا الجانب تحديدا يجعل من الناظر اليه ولو بعين واحدة محرما ! ويستحق صاحبه العقاب والحساب ..أخبرت ساليمتا جدتها مام بمعظم التفاصيل وبادرت الأخيرة بإخبار ابنها سليمان كانت هادئة وهي تفهمه أنه (بيظاني) وهو أخ صديقتها بعد تردد كبير وافق سليمان على مقابلته وان كان لا يرغب مبدئيا بتزويج ابنته لغير (فلاني) ...

اتصلت بسيدي ليرافقني في رحلة المساء ..ركبت السيارة الى جانبه جلس هو خلف المقود ووضع الشريط وأدار محرك الصوت لينطلق صوت سدوم وهو يغني إحدى قصائد نزار الجميلة ليتمايل سيدي وهو يدندن بصوته الخشن اللامبالي ..لم أزر الميناء من قبل تبدو صاخبة نوعا ما تلك الشوارع الخلفية والأزقة الضيقة تؤكد أن هناك أشخاصا آخرين ينتمون إلى مدينتنا (نواكشوط) وكلهم اختلاف عنا ! لانعرف عنهم إلا ما تظهره ملامحهم ولا يعرفون عنا سوى ذلك... أحاول ترتيب الأفكار في رأسي، الواحدة تلو الأخرى وكل الكلمات التي سأقولها لوالد ساليمتا .سأخبره بكل الأشياء والتي أهمها أن والداي لا يوافقان على هذا الزواج ليتقبلوا ذلك من الآن .....
انتشلني سيدي من أفكاري قائلا : هل أنت متأكد أنهم سيوافقون ؟
-وما المانع ؟
نفس المانع عندكم، أم تظن أنكم وحدكم من لا يقبل الاختلاف ! هم أيضا كذلك وأكثر ..
-أعلم ..لكنني لست متشائما مثلك
لست متشائم لكني واقعي !
-دعنا من هذا الان سنذهب ونرى ...أخفض الصوت قليلا إنها تكبر تتصل .
ألو
-أين أنت؟
في طريقي الى الميناء !
-إذن ما قالته خالتك صحيحا ؟
نعم ...صحيح
-تتحداني !
لا يا أمي لا أفعل لكنكم ترفضون قراري ولم تتركوا لي خيار آخر ..
-أي قرار أحمق هذا ؟ تود منا تزويج وحيدنا وبكرنا من زنجية ..حقا سأخبر أباك وهو سيتصرف معك بطريقته ! سيعرف كيف يوقفك ..

أنا يا أمي لا ...
-ماذا ؟
قطعت الخط ...
الشيخ ..هل نعود ؟
لا ! زد السرعة قليلا !
في الوجه الاخر من ذاك المساء تقرفص ساليمتا فوق سطح منزل خالها مامادو الذي لا يبعد سوى أمتار عن منزلهم ..تحدق في الأشياء تارة وتغمض عينيها تارة أخرى متوترة جدا وسعيدة أيضا وخائفة ..تتسع ابتسامتها كلما تذكرت (الكافان) اللذان قالهما الشيخ في محادثته لها ..تحاول حفظهما رغم أنها لم تفهم جميع معانيهما ..كما تحاول استيعاب كلمة أخرى تفوه بها اليوم ! أكانت أحداث هذا اليوم بعيدة كل هذا البعد ..أم أنها هي من وضعت حواجز وأرادتها كذلك ..اليوم غريب جدا كل أحداثه تبدو فوضوية وعبثية لكنها تحلو لها ...اليوم قرر الشيخ خطبتها ...
واليوم هاتفها لأول مرة ! وقال أشياء لأول مرةٍ !
اليوم ايضا عاد ابن عمها الذي من المقرر أن يصبح زوجها يوما ما ..أو كما يأمل أباها ..
اليوم وافق سليمان على مقابلة الشيخ ..واليوم رحلت البتول الى البادية ..اليوم تشعر بمشاعر محيرة لكنها سعيدة ...نعم هي اليوم سعيدة وكفى !
وواثقة من جدتها مام تعرف أنها تستطيع إثناء أباها عن رغبته بتزويجها من ابن عمها ! كما تستطيع اجباره على قبول الشيخ رغم صعوبة ذلك ..لكن مامه ستفعل لأجل حفيدتها ....!

****

الحب ليس رواية شرقية
بختامها يتزوج الأبطال
إنه الإبحار دون سفينة
وشعورنا أن الوصول محال
هو أن تظل على الأصابع رعشة
وعلى الشفاه المطبقات سؤال
نزار قباني

كان الشيخ يعرف أن الطريق الى سالميتا لن يكون سهلا لكنه قرر المضي فيه مهما كلفه الامر، سيتحدى ديناصورات المجتمع وقوانينه الغبية! أي أعراف هذه التي تعترف بالنسب ولا تعترف بالحب ؟

كيف يفرض عليه أن يتزوج من بناته عمه؟ هل هو الذي سيتزوج أم أمه؟ وكيف بهم يتحكمون بحياته بتلك الطريقة! تساءل وهو يحاول ابتلاع تهديد أمه قبل قليل في المكالمة ...كما أن سؤال سيدي

الأخير غير مزاجه قليلا ..

الرجال حين يتعلق الأمر بالزواج يكونون أسرع من النساء عكس الحب ...أنظر الى نفسك كيف كنت منذ أشهر تحاول اقناع نفسك بأنك لا تحبها وأنها مجرد تموجات لمشاعر عابرة والآن يا صديقي تسعى للزواج منها بأي طريقة ...

- إنها حقيقة!

وقفت دينبا والدة ساليمتا وزوجة الحاج سليمان الأولى ترش البخور الذي تمتزج مع روائح متعددة ..تصل القادم على بعد أمتار ..هذه عادتها كل مساء لكن هذ المساء تؤدي هذا الطقس بطريقة مختلفة .فاليوم سيزورهم بيظاني لخطبة صغيرتها ...هي لا تخفي فرحها مبدئيا لأنها ليست على وفاق بأعمام ساليمتتا لذا لا تريدها زوجة لأحد أبناء عمومتها ..مامه هذا المساء لن تفترش أقمشتها في بهو المنزل بل ستتوارى داخل إحدى غرفه ..مر كل شيء سريعا رغم بطئه. اتصلت تكبر بأحمد سالم وهي تدعي أنها تعاني ضغطا حادا وفي حالة يرثى لها والحق كل الحق على ابنهما الوحيد الشيخ الذي هو الان في طريقه لمنطقة قذرة والسبب خطبة زنجية حسب تعبيرها الحانق ..كان ذلك آخر ما يتوقعه أحمد سالم من ابنه الهادئ بطبعه .. فهو لم يحد يوما عن الطريق المرسوم له! هو الذي لم يخالفهم يوما ولم يقف ضد أي قرار اتخذوه باستثناء مسألة عمله بالبورصة ...كيف به الان يفعل ما يفعل ؟ أجابها بأنه سينهي الأمر بطريقته الخاصة ! ليس هو من يجبره شاب لا يدرك معنى للحياة في نظره على مخالفة مجتمعه ومواجهة أبناء عمومته !

طال السلام كثيرا كعادة من يخفي كلاما ينتظر بلهفه ردة فعل عليه ولو كانت لا مطمئنة !

إنه رجل صالح تمتم الشيخ لنفسه لكن سيدي جالس بجانبه سمعه وابتسم .. كان الحاج سليمان يتربع فوق الأريكة الكبيرة بدراعته البيضاء السميكة وعمامته الطويلة بمسبحة ذات حبات متكورة تتحرك بين أصابع يده اليمنى وبابتسامة مرحبة يحادث الشيخ الذي يجلس بالجهة المقابلة من الصالون وبجانبه سيدي الذي بدا مبهورا بمقابلة الحاج لهم وبديكور البيت المتواضع جدا.. لكنه أعجبه !

تحدثا في أمور كثيرة، تحدث الحاج سليمان بعقلانية والشيخ بثقة كان الحديث يتأرجح بين حسانية الحاج المكسرة وفرنسية الشيخ المتقنة ! تمازجت العبارات حتى بدت لغة واحدة.. لا اختلاف فيها ! أخبره الشيخ كل شيء وبوضوح.. هو آت لخطبة ابنته لكن أهله لا يوافقون على هذه الزيجة لذلك قرر المضي لوحده فيها ..لم يسأله الحاج عن السبب لأنه ليس من الصعب تحديده ..خصوصا على من عايش ذاك المجتمع ! لم يستغرب رفضهم أبدا فهو بحكم سنه يعتبرها ردة فعل طبيعية ..لكنه لم يستطع مداراة اعجابه بذاك الفتى القابع أمامه في هدوء لم يستطع اخفاء ذلك أبدا لذا أبدى قبولا مبدئيا ..وطلب مهلة لمشاورة أعمام ساليمتا كما قال ! ومر ذاك المساء بسلام ... أو هكذا ظن!

كان مساءا راقصا بكل ما فيه ... نبض قلبيهما الذي أخترق أسوار الحياة العالية متباهيا بسطوة الحب حين يكون ! ساليمتا مازالت جالسة مكانها فوق السطح تنتظر أخبارا تحمل موجة أمل جديدة ..تحدق في السماء التي بدت نجومها الليلة أكبر حجما وبدأت هي في عدها ..أخرجها من ذلك رنين هاتفها الذي أعلن عن وصول رسالة ..أخذته وفتحتها :

"الان فقط عرفت من أين لك بتلك الابتسامة التي تعلق الأشياء حولك ! ؟ لكم هو طيب والدكَ ! حسنا لن أطيل ..بدا لي أنه موافق لكنه يماطل ! لن يضرنا انتظار أيام أخرى ! ألم أقل لك بأنني سأهتم بما بعد الدخول ..؟"

ضحكت وهي تتنبه أن الساعة قاربت العاشرة ليلا وهي تجلس فوق السطح لوحدها ..شرعت في

كتابة رد وهي تحث الخطى نحو السلم وتفكر في عتاب جدتها حول بقائها وحيدة هناك حتى الساعة !
غير سيدي الشريط الى آخر أكثر صخبا ..فهو منذ فترة لم ير صديقه سعيدا كالليلة ..لم تكن السعادة وحدها من تحيط به إنما إحساسه بأنه حقق أول انتصار في حق نفسه ! ذاك الشيء يرسل بداخله بريق أمل ...
أخيرا ستريحنا من تسكعك وتدخل القفص! قالها سيدي وهو يتلاعب بمحرك السيارة متجاوزا السيارة التي أمامه ...
- سأدخل القفص صحيح لكن من قال بأني سأريحك من تسكعي؟
قلتها لنفسي يا أخي ..
- واهم ..! من يفرط بأكل أمك؟
ستنساه مع طبخ الزنجية ..وبالأخص للسمك !
- تحسدني منذ الآن ! ثق أنك لن تتذوقه! فالزنجية وطبخها وابتسامتها لي وحدي !
حسنا أيها المتيم ! سنرى ...

تكبر لم تغادر المنزل هذا المساء واغلانه والريم تتجنبان الاحتكاك بها فلم يسبق أن كانت بتلك العصبية .. اغلانه خائفة مما هو قادم والريم منذ حادثت ساليمتا وهي خائفة من أن تفرح لكي لا تلمح أمها فرحا في عينيها فعليها أن تكون معهم ..لا مع أخ فاشل في ثوب مراهق كبير ! كما تدعي أمها منذ أطلعها على رغبته، مع أنها سعيدة لأجله ولأجل صديقتها فهي وحدها من تعرف ماذا يحدث حين يولد حبك طاهرا وسط مجتمع لا يقبل الحب بدون قواعد وفروض ويحيطه بأسوار عالية يصعب تسلقها ..وحدها من عانت تلك المرارة وساكنت ذاك اليأس يوم شهدت تلك الربوع على حبها وسيدي ..وشهدت أيضا على وأده ..لم تقل شيئا بل لم تعترض لأنها فتاة ..بل تجاهلت الأمر برمته حين رفضوه وأهانوه بتلك الطريقة ! اليوم تحس بأن الشيخ أشفى بعض غليلها بوقوفه ضد أمواج العادات والتقاليد ..وبتصميمه على المضي وحده وعلى تسلق تلك الأسوار... وحدها كانت تجد لذة ذاك المساء رغم الوجع الذي يحيط بها ....
إنه الشيخ ..لقد وصل ! تفوهت اغلانه وهي تضع يدها على فمها وتنظر من نافذة الغرفة لسيارة سيدي التي توقفت عند باب المنزل وترجل منها الشيخ يتحدث ويبتسم ! التقط هاتفه ولوح لسيدي بيده ومضى نحو الباب ... تكبر التي كانت تتحرك في بهو المنزل الكبير بطريقة بهلوانية ما إن سمعت وقع خطواته حتى تفجرت كل براكين الغضب والعتب بداخلها ومضت تنظر نحو الباب تنتظر دخوله ...دخل الشيخ متناسيا ما ينتظره وما إن خطا متجاوزا العتبة حتى قابله وجه تكبر الذي يتكور الدم بداخله من شدة الغضب .. نعم إنها أمه تلك المرأة القوية التي لم تعتد أبدا أن يرفض أحد ما طلباتها تلك التي اعتادت دوما توجيه الأوامر .. تلك التي تهتم لكلام الناس أكثر من اهتمامها بابنتها المراهقة ..تلك التي تخطط دائما بالنيابة عنهم وتفكر وتنفذ ! تلك التي كانت ترسم له واقعا كان قريبا بتزويجه من احدى بنات عمه لتكتمل اللوحة في نظرها باجتماع النسب والحسب ولكي لا يكون (خيرنا لغيرنا) ومن غيرنا فهي لا ترى من هم أعز منهم وان كان فقليلون ..نعم إنها أمه التي تندفع نحوه الآن ويرى خيبة تحاول اخفاءها لأنها دوما القوية ! ليحل مكانها كلام يحمل في طياته الكثير من السخرية ونبرة

ثقة يعرفها جيدا ...

****

وبرغم الـريح وبـرغـــــــــــــــــم الـجو المـاطر والاعصـــــــــــار
الحــــــــــــب سيبقــــــــــــــى يــــا ولـدي أحلــــــــــــى الأقـــــــــــــــدار

نزار قباني

أهلا بالعريس كيف كانت خطبتك؟

كان يعلم جيدا أن ذاك السؤال بداية حرب كبيرة ربما لانهاية لها .... إنها تلك الحرب التي أشعل بدايتها وعليه الخروج منها منتصرا أو مهزوما ! عليه اختصار الاجابة جيدا فتكبر تنتظر تلك الاجابة لكي تبدأ عاصفتها ...

- كانت جيدة !

حقا! وافقوا إذن! وكيف لا وقد أتاهم عريسا لم يكونوا يحلموا به حتى في مناماتهم الراقصة.. تفضل اذهب اليهم ..احزم حقائبك بصمت وانصرف من بيتي ولا ترني وجهك ثانيا ! كان يتوقع ذلك فتكبر ليست بالمرأة التي تقبل الاستسلام خصوصا لغير رغبتها بسهولة .. مضى الشيخ إلى غرفته تتبعه نظرات الريم واغلانه ولكل نظرة رؤيتها الخاصة فالريم تشعر بسعادة تشوبها مشاعر كدر لأن أخاها سيترك المنزل بل قد يترك حياتهم إلى الأبد مع أنها تعلم أنه لن يتخلى عنها ....أما اغلانه فترى بأن قراره خاطئ وليس من المعقول أن تتركه تكبر يفعل ما يريد !

ترك الشيخ المنزل بصمت كما أمرته تكبر ودون وداع شقيقته اتصل بها وهو يدير محرك سيارته التي لا يستعملها غالبا فسيدي دائما ما يتولى توصيله ... أخبرته أن ساليمتا اتصلت بها وأخبرته عن مخاوفها من عدم قبول أعمامها وذلك معناه عدم قبول والدها أيضا ..كان يدرك أنه وسط كل تلك المشاكل والأمور التي لا تنبأ بخير عليه أن يتفاءل ويسعى جاهدا لتحقيق رغبته التي باتت الآن حلما عليه الفوز به ! سيقضي هذه الليلة عند سيدي ويتصل بأحد أقربائه المقاولين يبحث له عن منزل يشتريه ... هو الآن غارق في التفكير بعيني ساليمتا ومخاوفه من رفض والدها وفقط! لا يهمه ما فعلته تكبر فقد كان يتوقع رد فعلها وبل أكثر ....

****

إنه أحد صباحات مدينة نواكشوط التي يتشابه معظمها ..غير أن شمس اليوم تبدو هادئة قليلا. تكبر تجلس في غرفتها، لم تنم البارحة باتت تشكو حالها الذي أوصلها إليه حسب زعمها ولدها الوحيد .. إنها تنتظر اتصالا من أحمد سالم ليخبرها بما فعل في هذه المعضلة ..لقد وعدها بإنهاء الأمر وعلى طريقته، وتتمنى فعلا أن يفعل ذلك لكي لا يضطرها للتصرف على طريقتها التي تكره لكنها عند الضرورة ستفعل لإنقاذ وحيدها من فلانية بالتأكيد سحرته ..

لم تكن تكبر الوحيدة التي لم تنم البارحة فالشيخ أيضا لم يعرف النوم طريقا لعينيه ويغيظه شخير سيدي الذي مازال يصدع في أذنيه ... لن يوقظه لأنه يعرف عاقبة ذلك! سينتظر حتى يستيقظ لوحده ثم يذهب الى المكان الذي وصفه له المقاول ويرى المنزل الذي إن وافق والد ساليمتا سيستقرون به !

كان الحاج سليمان في دكانه فهو يبدأ العمل باكرا حين وقفت تلك السيارة رباعية الدفع عند بابه ونزل منها رجل أربعيني متوسط القامة أبيض يلبس دراعة زرقاء وقف بباب الدكان وألقى سلاما باردا رد سليمان بابتسامة وديعة ...

أهذا دكان سليمان كامرا ؟

- نعم .... دكانه !
أين هو؟ عندي رسالة يجب أن تصله ..
- أنا هو ! تفضل بالجلوس
لا داعي لجلوسي فالرسالة قصيرة! عليك أن لا توافق على زواج الشيخ من ابنتك ...
- هل يمكنني أن أعرف من يكون محدثي ؟
مجرد رسول !
- من من الرسالة ؟
من أب الشيخ (أحمد سالم سيدي) رجل الأعمال والسياسي المعروف صاحب الحسب والنسب تبدو كأنك لم تسمع به ! لكني أنصحك بأن تنفذ ما في الرسالة ... فكلمة واحدة منه كافيه لتدمير حياتك! فكما تعلم هو مقرب جدا من السلطة .. رمى الرجل كلماته وخرج راكبا سيارته من جديد ... كانت ملامح الغضب قد بدأت ترتسم على قسمات سليمان أخذ هاتفه ليتقدم بخطوة لم يحسب حسابا لما بعدها ! بعد رنين ليس بالطويل ..
آلو ..
- j'ai acceptè ton mariage de salimata

- ما هذا الصراخ؟ كيف توقظني هكذا أيها الجني؟
لقد وافق والد ساليمتا .. وافق حين لم تكن هي حتى تتوقع ذلك ! الحمد لله
- متى وافق ؟
الان !
- اتصل بك في هذا الوقت !
أتظن بأن الجميع ينام الصيحة مثلك ويشخر ذاك الشخير !
قذفه سيدي بالوسادة وخرج ليستعد للذهاب معه فهو لا يتركه بمفرده أبدا، يشاركه كل شيء!
تفاجأت مامه الجالسة في صالون من قبول ابنها بهذه السرعة فهو لم ينتظر حتى استشارة اخوته الذين بدورهم لن يتركوا الأمر يمر هكذا ببرود ...حتما ستحدث مشاكل تهدد وحدة العائلة وذلك ما لا تتمناه مامه أبدا ..

لم تقتنع برده حين سألته عن سبب موافقته بهذه السرعة وقبل أخذ رأي اخوته ! أجابها بأنه أعجب بالشيخ جدا ولا يريد أن يرفض عرضه وهو متأكد أنه اذا شاور اخوته حتما سيرفضون ! كان ما يقوله سليمان لأمه العجوز بعض الحقيقة فقط فلقد كانت تلك الزيارة الصباحية والتهديد المنطوي تحتها السبب الرئيسي في الموافقة فسليمان بطبعه رجل شديد ذو كرامة وعزة نفس ولا يقبل حتى أن يحادثه أحدهم بتلك الطريقة أيا كان! لم يتأكد بعد ان كانت ردة فعله صائبة أم لا لكنه حين فعلها لم يكن يفكر في العواقب بل في إرسال رسالة للمسمى أحمد سالم سيدي!

حادثت الريم ساليمتا لتبارك لها ...قضتا معا وقتا طويلا يتهامسن عبر الهاتف ...تحدثتا في أشياء كثيرة وبفرحة لا تخفى في صوت أي منهن ! كان الحديث يشبه الى حد ما البكاء على الأطلال حين وصلن الى الثانوية وأيامها ..طبعا لا يمكن المرور بحديث كهذا دون ذكر المتنبي كما قالت الريم وهي تضحك وبادلتها ساليمتا الضحكة وهي تقول أستاذنا الفاضل تقصدين ! أتصدقين رغم كل ما يفعله بي الا أنني أشتاقه !

- أما أنا فأشتاق لصراخه علينا فقط ...
لم يعد يفصلنا الكثير عن الفصل ...وتعود البتول ونجتمع من جديد !
- البتول ..أخبرتها بموافقة والدك؟
لم أفعل بعد ..
- حسنا افعلي سريعا وإلا ... تعرفينها!
ستحطمني اذا عرفت أن موعد الزواج سيكون قبل بداية الفصل وهي لن تعود إلا بدايته !
- فلتطلبي من الشيخ تأجيله حتى مجيئها
لا ..لن أفعل من قال اني أريد تأجيله !؟
- هنيئا لك يا أخي الفلانية تبدو مستعجلة
حسنا اسخري ...لكني لن أؤجله ..
- لن تغفر لك البتول ان لم تحضر عرسك ...
ولن أغفر لنفسي إن أجلته ..
- فلتتحملي عقاب البتول اذن .

****

مر أسبوع والشيخ وساليمتا يغرقان في بحر سعادة لا حدود لها ...ينعمان برائحة الحب التي تسكن قلبيهما وترافقهما أين ما حلا ...اتفق ووالد ساليمتا على إقامة الزفاف بعد أسبوع، فقد جهز الشيخ كل شيء اشترى المنزل وجهزه ..وسيأخذ عطلة من عمله حينها يبدأ الأسبوع بالتشريف.. ترك باقي الترتيبات لسيدي وأمه التي فرحت له جدا كفرحة أم لولدها ... هي نفس المشاعر التي تحمل تلك المرأة النقية لسيدي تحملها له ..لقد تولت كل ما يتولاه النساء عادة في الأعراس.. اتصل بتكبر كثيرا علها تراجعت عن موقفها ..لكنها لم تستقبله ومنعته حتى من الاتصال بأخته حين أخذت منها هاتفها وأخبرتها بأنها لن تحضر عرسه وإن رقصت بكلتا يديها ورجليها .. اتصل بخالته لكنه كلما فعل تعاتبه كثيرا وتلومه.

ساليمتا تجهز نفسها للحدث المرتقب وتشعر بضيق لأن صديقاتها المقربات لن تحضر إحداهن .. لكن ابتسامة مامه كلما رأتها كذلك تزيل ذاك الشعور ... لن تفتقد أحدا في هذا البيت قدر افتقادها لمامه.. إنها جدتها التي تعشقها حد الجنون وتفهمها أيضا .. أكثر من أمها وأخواتها ... هي التي لا تتردد ولا تخشى أو تخجل من أن تحكي لها أي شيء يقابلها في حياتها.. تشعر بغصة كلما فكرت أنها ستفارقها بعد أيام ...

****

- انه اجتماع مغلق ..صاحت اغلانه وهي تحادث الريم !
من يقيمه؟
- من سيكون أيتها البليدة غير أبيك وأمك!
أبي هنا! منذ متى؟
- منذ اتصلت به امك وهي تكاد تفقد عقلها مما يفعل أخاك الذي حسبته عاقلا ..
بم سيفيده العقل إن كان سيعيش حياة خرساء كالتي نعيشها؟ تحظر الحب وتطرد السعادة وتقتل الأمل ..! ما تسمونه عقلا ليس عقلا في الحقيقة بل هو وأد للحياة وإن كان كذلك فجنون أيامنا عقلا ...
- أصبحت مفتية أنت الأخرى.. طبعا ألسنا في موريتانيا على رأي أحدهم !

أتساءل فقط على ماذا سيفضي هذا الاجتماع ودون زواج أخيك أيام قلائل!
لن تتركهم أمي يهنئون ...متأكدة من ذلك ...
- وأنا ايضا .. أختي وأعرفها.

****

يبدو الحي كله في عرس ...فرحا بعرس ساليمتا إنها ملح الحي كما قال محمد صاحب الدكان المجاور لمنزلهم لم تتوقف الزيارات منذ الصباح ودينبا في غاية السرور تجول بين المعارف توزع الابتسامات كأنها توزع الحلوى على الصغار في العيد.

الرجال فوق السطح يحتفلون لقد حضر الجميع باستثناء أخ سليمان الأكبر الذي اعتبر عدم مشاورته في أمر زواجها احتقارا لمكانته في العائلة ولم تستطع أمه اقناعه بغير ذلك حتى أنها ترجته لكنه لم يستجب !

بدأت الموسيقى الزنجية تصدح في مكبرات الصوت وبدأ الراقصون إحياء الحفل ...عاش الحي ليلة صاخبة وجميلة حتى هواء الميناء المزعج انصاع لأوامر قدر الحب وبات طريا ... كانت يدي ساليمتا آنذاك تزينهم خطوط الحناء الرقيقة التي شكلت لوحة فريدة وهي بين كفيها لقد اتفقت والدتها ووالدة سيدي على زواج بطريقة مزدوجة تحمل كلا من عادات وثقافة الطرفين البيظانية والفلانية .. فملابس العروس ستكون ملابس فلانية لكنها ستخط الحناء الخاصة بثقافة البيظان كما باقي زينتها ك(العروس التي توضع على الشعر وارشوش .. الخ)

إنها الآن جاهزة ليستلمها عريسها ...صاحت الفتيات بالنساء خارجا.. كانت في قمة الجمال ..لم يكن جمالها تقليديا كان نورانيا يحمل البراءة والطهر والطيب ... كان الشيخ يعلم أن قلبها الطاهر يستحق كل تضحية منه ... في سبيل أن يعيش الحب ليسكن أولادهما وأحفادهما علهم يغيروا المجتمع ويطهروا أفكاره ليستبدلوها بأخرى شعار كل منها الحب والحب فقط ..... أبواق سيارات العرسان تبتعد وتقترب كل تارة وتارة من المنزل لأنهم يجوبون أطراف الحي وزواياه. يجلس الشيخ الجلسة المعتادة قرب صديقه الصدوق سيدي لا يستطيع أبدا أن يتحكم في شبح الابتسامة الذي كلما حاول أن يرجع شفتيه للحالة الطبيعية ظهر! سيدي يقول بأنه لن يقول شيئا فهو يعرف جيدا أن هناك مشاعر لا يمكن نقلها أبدا ولا توصيلها عن طريق اللغة فاللغة كما يقول(لالاند :قاصرة) هي قاصرة فعلا عن نقل نهر الأحاسيس ذاك الذي يجتاح الشيخ الآن.. يمكن فقط الاحساس بها وليس نقلها عن طريق عبارات .. لو كانت تلك العبارات عبارات مسكون بالحرف ...

ستستلم عروسك أيها العريس!
- أخيرا قلتها!
كنت أنتظر الليلة! عليك أن تخجل قليلا ونحن ندخل!
- لا أظن أن باستطاعتي فعل ذلك .... فشبح الابتسامة ذاك يحرم مفارقتي .. كما أن التفكير في ابتسامة ساليمتا تشغلني عن الحياء!
أتمنى أن تكون ضمن عاداتهم هذه القاعدة، إذا لم يخجل العريس طردناه ...
- أعرف أنك تغار مني يا متسول. سأتركك للعزوبية وحدك ..

نزل أصدقاء الشيخ من سياراتهم الفاخرة ..تلك التي لا تدخل الحي إلا في مناسبات كهذه ... وأخذت الزغاريد مكانها بين الحضور دلف الشيخ ورفاقه المنزل واستلم يد ساليمتا من خالتها على الطريقة البيظانية ! ليضع يده على كتفها ويمرا من بين الموكب قلبين سعيدين بالحب ... كلاهما لا

يرى إلا الآخر ولا يسمع من تلك الأصوات الصاخبة التي حوله إلا صوت نبضات قلب الآخر ...
نحتاج للحب فعلا لكي نعيش يمكننا العيش بدونه لكنها ستبدو حياة ... بلا حياة!
ركب الجميع سياراتهم وأخذو الطريق المؤدي الى خارج العاصمة تحديدا طريق روصو فقد حجز لإقامتهم في فندق قرب (تگند) ...سيقضون فيه أسبوعا ثم يقيمون في المنزل الجديد ...
كان الطريق رائعا والشيخ يهمس في أذن ساليمتا كل حين ويسخر منه سيدي أحايين أخرى.. وساليمتا تقاوم الضحك بكل جهد ..... اخترقوا أسوار تكند حوالي الثالثة صباحا واتجهوا الى الفندق ...نزل الجميع خلفهم ودخلوا وعصافير السعادة تحلق فوق رؤوسهم وطائر الهزار يغني لحنا سحريا ... وقف جميع أصدقاءه بباب الجناح يودعونه بطريقتهم الخاصة والتي أساسها ازعاجه ... بعد الكثير والكثير رحلوا ... وتركوا العصافير مع العصافير .. دخل الشيخ وجلس بالقرب من ساليمتا التي تضع وشاحا على وجهها الملائكي أزاحه وأغمض عينيه لدقائق يقنع نفسه أنه لا يحلم فعلا ...
عرفت الآن لما انتظرت كل هذا الوقت ... لقد كانت الأقدار تخبأ لي منحة العمر ..لقد كنت أنتظرك .... وها قد أتيتي
ساليمتا .... هل أنا في حلم؟

****

الحب ؟؟! من قال أن الحب ينجح بذاته؟ كيف تنمو نبتة في تربة غير صالحة ...؟ كيف تثمر وتزدهر في ظروف لا تناسبها؟ كيف لنبات البسيتا المائي أن ينمو في تربة طينية موحلة ؟؟

منى سلامة

ساليمتا .... هل أنا أحلم ؟
- ليس حلما صدقني! انها حقيقة لكنها ساحرة فقط ...
كل الأشياء تبدو ساحرة الليلة (08/08/2015) إنه تاريخ زواجنا ... تاريخ محفور في أعماق قلبينا ... الحمد لله ..
علنا نظل نشعر بتلك السعادة التي تحيط بنا للأبد ... يكفيني النظر إلى عينيك وتأمل ابتسامتك ... تلك سعادتي .. ساليمتا دعيني لا أقول أحبك فالحب الذي أشعر به لا يعبر عنه بالحب ! فتلك الأحرف الأربع لا تعبر عن شيء ولا تشبع رغبتي أبدا ولا توصل أي شيء ..دعيني أقول .. أشعري بحبي وكفى .. أحسي به وشاركيني إياه ولتسعدي به كما أفعل .

***

كانت شمس ذاك الصباح مشرقة رغم ما تحمله .. دق ذاك الفتى المتسخ الثياب يحمل كيسا قديما مشوه الملامح الباب الرئيسي لمنزل الحاج سليمان دقات متسارعة خائفة فتحت جينبا وهي تتساءل عن الطارق المزعج الذي أيقظها من نومها الذي تبدو في حاجة إليه بعد عناء البارحة فتحت الباب ليقابلها وجه ألاسان ..
- ألاسان ..ما الذي تريده في هذا الصباح الباكر ؟
كان ألاسان يلهث وينظر اليها نظرة غريبة لأول مرة تلمحها في عينه !
- هيا .. تكلم !
هل الحاج سليمان موجود ؟ .. أقصد ..لقد دد .. إن دكانه يحترق !
كانت الكلمة الأخيرة كافية لإيقاظ جينبا التي كانت تتثاءب ..
- ما الذي تقوله ؟

صدقيني لا أعلم شيئا! لقد كنت قادما إلى الدكان لأتسول كعادتي كل صباح فإذا بالنيران تشب به وتحاصره من كل صوب والجيران يحاولون إخمادها ..فأتيت ركضا إلى هنا لأخبركم ... كان الحاج يستمع إلى كل كلمة نطق بها ألاسان ..غير ثيابه وأخذ المسبحة في يده وأخذ يتمتم بحزن: لقد فعلها البيظاني إذن !

الحي كله استيقظ على أثر الحريق الذي شب فجأة ودون أن يعرف أحد كيف حصل في دكان الحاج سليمان .. وصلت سيارة الإطفاء متأخرة وبعد ما أخمد رجال الحي النيران الملتهبة .. وقفت جينبا على الركام وهي تضع كلتا يديها على صدرها وتتمتم: من يصدق أن الدكان احترق بكل ما فيه ... جهد سليمان طوال عشرين سنة ضاع! وحلمي بتوسعته ليعمل فيه الأولاد ضاع أيضا! ماذا نفعل الآن ؟ من أين سنعيش ؟ وكيف ؟ الدكان كان كل ثروتنا بعد بيعنا الأبقار..

ماذا سأقول لمامادو حين يسألني عن الدكان الذي ينتظر العمل فيه .؟ اجتمع الصبية المتسولون (ألمودات) يجمعون ما تبقى من حطام البضائع التي كانت تملؤ الدكان ورجع الحاج سليمان يحث الخطى نحو منزله وغيمة حزن تتشكل أمام ناظريه يتفادى جاهدا السقوط بها.

تسربت الى ذهنه تساؤلات كثيرة .. ربما تسرعت حين وافقت على زواجها منه ؟ ربما لم يكن علي تجاهل تحذيره ! ربما كان لزاما علي أن أسمع كلام أخي ... مهما يكن فلست بنفس قوته ولا مكانته ! بالتأكيد حربنا ليست متكافئة ..رجل أعمال ذو نفوذ مقابل خمسيني فقير كان يمتلك دكان احترق قبل ساعات في الميناء ! لأول مرة منذ زمن يحس سليمان بنفسه الضعيفة ... أو عساه لأول مرة يعترف بذاك الضعف ..ولأول مرة أيضا يحس بأن الكرامة عبء ثقيل. وأن المسافة التي بينهم وبين عائلة الشيخ طويلة جدا وعسيرة ... وصل الى المنزل كانت مامه تجلس في مكانها المعهود وقد وصلها الخبر منذ دقائق فالخبر قد جال وصال في الحي كله! نظرت إليه طويلا لاحظت ما يحمله وجهه من شحوب وما تحمله نفسه من انكسار فلقد كان هذا الدكان كل حياته ! فكيف به يخسره فجأة ! وضعت يدها على كتفه وقالت فليعوضك الله خيرا يا بني ..لاحول ولا قوة الا بالله.

****

بينما كان الشيخ وسلكه يغرقان في أسبوع عسل بعيدا عن عاصمة المتناقضات كانت تكبر تجلس في الصالون تحمل هاتفها بيدها اليمنى وتهز رجلها اليسرى فهي منذ البارحة تجلس هكذا ! تنتظر أحمد سالم لترى ما الذي أمكنه فعله مع أن الزواج قد تم ولم يستطع أن يوقفه ! كم يؤلمها ذلك وحيدها تزوج من زنجية لا تليق يه ! الريم تراقب أمها بصمت كما خالتها ... دخل الأب ودلف مباشرة الى غرفة نومه تبعته تكبر ...

- ماذا فعلت ؟

لا تجهدي نفسك كثيرا لكي لا يرتفع ضغطك!

- دعك مني الان ! وأخبرني ماذا فعلت ؟

كلفت فاضل بالأمر ..سيتصرف ! تعرفينه .

- أعرفه ! وإن كان الزواج قد تم ...ولكني لن أدعه يستمر ..

كانت غلانه تتنصت كعادتها ..أخبرت الريم بكل ما سمعت وجلست الأخيرة قلقة تنتظر اتصالا من أخيها. الذي كان يلهو بالحياة بيد أنها ستلهو به قريبا .

عاد العرسان الى نواكشوط العاصمة وكان منزل الحاج سليمان أول وجهة حيث ستقضي ساليمتا

اليوم هناك بينما ذهب الشيخ ليرى صديقه سيدي ويمر على منزل أهله فقد اشتاقهم حقا بالأخص الريم! ويأمل أيضا أن تكون أمه قد تقبلت الأمر! ويعود الى كنف عائلته من جديد.

ملامح البيت كما هي .. نوافذه البينية والتشققات التي تملئ جداره الخارجي وسقفه الذي بدا صدئا مع مرور الزمن .. لكنه ليس صاخبا كالعادة ..بل الشارع كله هادئ هذا الصباح يخيم على البيت سكون غريب ! هذا أول ما خطر لها وهي تتجاوز عتبة البيت الأمامية رأت مامه جالسة تدور حبات المسبحة بين يديها بخفة .. أقبلت عليها تعانقها عناقا طويلا ... ه ا كم اشتاقت إليها وإلى رائحة البخور التي تملؤ ملابسها دائما وإلى مسبحتها تلك.. إلى حديثها ودعائها ...اشتاقت إلى كل الأشياء التي تخصها ...لمحت ساليمتا غيمة الحزن تلك وهي تسلم على والدها ولاحظت شرود أمها، متأكدة هي أن شيئا ما حصل في غيابها لكنهم لا يتفوهون بأي شيء.. ربما عليها انتظار أحد إخوتها ليجيبها !

وكأنه ليس بأسبوع بل سنة ! اشتقت إليك أيها الشقي .. تفوه سيدي عندما رأى الشيخ قادما نحوه

- وأنا أيضا اشتقت إليك ....كيف حال أمي؟

بخير .. تصر على زيارة ساليمتا للمنزل

- بالتأكيد سنفعل ..

ماذا الآن؟

- سأذهب الى البيت.

حسنا. أراك الليلة.

عاد الشيخ ! صرخت الريم عندما رأت سيارته تقف أمام المنزل .. تحركت اغلانه من مكانها وهي تتمتم : يعطينا خير ذ النهار !

دخل الشيخ تلقته ذراعا الريم فعانقها بقوة وضربته على صدره وهي تضحك وتقول:

- أين عروسك!

انتظري حتى تنتهي من أمري حينها اسألي عن صديقتك!

- أهلا ..أهلا .. عاد العريس ..

اغلانه ..كيف حالك ؟

- بخير ..وأنتظرك

أين أمي؟

- نائمة ! لنحقق معك قليلا قبل أن تستيقظ ..

جلست الفتاتان حول الشيخ ليبدؤوا حديثا طويلا .. سألوه عن تفاصيل العرس والأسبوع الذي قضاه في تگند ..استيقظت تكبر على أصواتهم ..فعرفت أنه قد أتى .. خرجت إليهم فتقدم الشيخ نحوها مقبلا رأسها ...دفن عينيه في حضنها علها تفهمه هذه المرة لم تشأ تكبر أن تفسد هذه اللحظة التي نادرا ما تحدث بينها وأبنائها وقد فهمت أيضا بمكرها الأنثوي أن مقاطعة ابنها أو طرده من المنزل لن تجعلهم يصلون إلى مبتغاهم ولن تجعله يسمع كلامهم بل سيزيده ذلك عنادا وتصميما .. لذا قررت أن تنهي الأمر بطريقة .. أخرى احتضنته هي الأخرى وحدثها عن افتقاده لها وللمنزل ... كانت جلسة طويلة تحدثا في كل شيء عدا زواجه! كان الأمر يحير الشيخ قليلا لكنه طمأن نفسه بأنها قد سامحته وعرفت أن الأمر قد قضي ولا مصلحة في مقاطعة ابنها الوحيد ... لكنه تفاجئ من حنانها المفاجئ فهي لم تكن يوما هكذا!

انقضى النهار .. وذهب الشيخ إلى الميناء لأخذ ساليمتا لترى منزلهما الجديد ..لأول مرة .. دخل

المنزل ليلقي السلام ثم أمضى دقائق وهو يحادث سليمان في الصالون .. ودعت ساليمتا جدتها والبقية وترجلا إلى السيارة في هدوء ... طوال الطريق لم تتفوه بكلمة ..أحس الشيخ بتغيرها فقد اختفت ابتسامتها .. التي كانت ترفرف هذا الصباح كطائر جميل في فصل الربيع يأبى الخضوع!

ساليمتا ...أخبريني ما بك ؟

- ليس هناك شيء !

لا .. هناك أنا أعرفك جيدا ..ما الذي حصل اليوم في منزل أهلك جعلك شاردة ومتضايقة ؟

كانوا قد اقتربوا من المنزل ... دخل الشيخ مع شارع جانبي ليتراءى له منزل صغير ..يحمل ملامح راقية .. أطفأ السيارة أمامه وهو يكرر سؤاله على ساليمتا التي تفوهت أخيرا وهي تترجل من السيارة:

- لقد احترق دكان أبي هذا الصباح بكل ما فيه ! وأبوك من فعل ذلك..

ثم تحركت بخطوات سريعة نحو باب المنزل تبعها بنفس الخطوات وهو يقول ..: وما دخل أبي ؟ ما الذي تقولينه ؟ الحاج أيضا لم يذكر لي شيئا من ذلك !

- لن يفعل ... أبي لن يقول لك أي شيء حتى أنا لم يخبرني بل أمي من أخبرتني .. وأخبرتني بتهديد أباك لأبي من شهر تقريبا عندما تقدمت لخطبتي... لكن أبي صمم ولم يلقي بالا لتلك التهديدات.

لا أصدق .. أبي يفعل ذلك ..بالتأكيد لأمي يد في الأمر

-حسنا .. صدق وأفتح الباب لندخل فأنا متعبة!

لم ينم أحد تلك الليلة ... الشيخ جلس في ركن من المنزل ..يفكر في الشيء الجديد ..إذن لن يتركوه أبدا .. لكن ما ذنب عائلة ساليمتا ؟؟ ذنبهم أنهم وافقوا عليك وتقبلوك بكل اختلافاتك .. ذنبهم الوحيد أنهم سلموا ابنتهم لك ..سليمان ذاك الرجل الطيب خسر كل ما يملك في لحظة ولم يتفوه لي بكلمة ..أبي كعادته يستخدم نفوذه في غير محله ! كجل المتنفذين! مجرد التفكير في أنهم قد يقدمون على خطوة أخرى لإيذائهم تجعله يشعر بالضيق والذنب ...

ساليمتا مستلقية على السرير تحدق بالسقف تفكر في الحال الذي آلت إليه عائلتها وبسببها أيضا! إن الانكسار الذي رأته اليوم في عيني أباها جعلها تخاف من ما هو قادم حتما ! إن ما يحزنه حقا أنه لن يستطيع التصدي لهم فهم أقوى منه بطبيعة الحال وهو لا يملك ما يدافع به عن نفسه وعائلته .. وليس هناك دليل قاطع لإدانتهم .. وإن وجد فأصحاب المال والنفوذ سيمسحون الدليل بممحاة اذلالهم ..

تكبر هي الأخرى تدور في غرفتها بتوتر غير معهود ... تتحدث في الهاتف تارة وتطفئه تارة أخرى يبدو أن اغلانه والريم غارقتان في النوم وأحمد سالم لم يعد بعد .. يطلق الباب الرئيسي للمنزل رنينا مزعجا فتهرول تكبر ناحيته فقد عرفت على الفور أنه فاضل حافظ أسرار العائلة واليد اليمنى لتكبر ... فقد كانت تنتظره ..

لقد تأخرت ..

- لم يعد في مكانه لقد غيره .. اضطررت للذهاب إلى كيهيدي بنفسي لجلب ما حضره !

حسنا .. ناولني إياه

وبابتسامة ماكرة يضع فاضل في يد تكبر الممدودة إليه بتلهف كيسا بلاستيكيا صغيرا بداخله حبات رمل!

****

كل صباح تحمل شمسه مفاجآت .. متناقضات أمل ويأس .. حب وكره... أفعال واقوال ... كان

هذا الصباح أحدها حين استيقظت ساليمتا على أصوات تدور في المنزل خرجت لتجد الشيخ يجالس امرأة أربعينية يبدو من ملامحها التي شابهت ملامحه أنها أمه .. فهمت ذلك على الفور حين رمقتها تكبر بنظرة ازدراء وتهكم ... أقبلت نحوها ومدت كفها لتسلم عليها .. ظلت كف ساليمتا معلقة لثواني .. مما أشعرها بالحرج .. وبعد نظراتها تلك مدت يدها نحوها .. صافحتها ببرود ثم قامت لترى المنزل على حد قولها .. ظلت دقائق في غرفة النوم ..ثم خرجت ليخرج الشيخ وراءها مشيرا لساليمتا أن تبدل ثيابها لأنه سيأخذها اليوم لزيارتهم ... أوصل أمه لسوق النساء حيث تعمل ..ثم عاد لمنزله لأخذ ساليمتا وجدها جاهزة كانت ترتدي طقما جميلا جعلها (فلانية بامتياز) أطال النظر إليها فابتسمت غازلها ببضع كلمات كعادته .. هو يتفهم أن تتمسك بهويتها جيدا ..حتى لا تتلاشى لكنه يود أن تتلاحم وهويته ليشكلا ثنائيا أسطوريا تتحدث عنه الجدات بعد أجيال.

كان يوما مميزا راقصا على أنغام الحب بكل معانيه.. قضت اليوم بين أحبائها الريم التي افتقدتها كثيرا في الفترة الماضية ... افتقدت جنونها وبراءتها .. والشيخ الذي كان يجالسهم بين حين وحين كان يود أن يكون سيدي حاضرا معهم لكنه يعلم أنه لن يعتب باب منزلهم مرة ثانية ! .. اغلانه هي الأخرى اندمجت في المجموعة وأحبت ساليمتا التي رأت كم هي بسيطة وطيبة وتستحق ابن أختها بغض النظر عن من تكون ! بالتأكيد لن تتجرأ على اخبار تكبر بالأمر ..! وإلا.. لا تريد حتى التفكير في ما سيحدث لها إن فعلت ..عليها أن تصمت وكفى الصمت هو أثمن ما يملكه أمثالها .. تعلمت الصمت منذ دخلت منزل أختها _الامبراطورة_ علمها الصمت أشياء كثيرة لم تتعلمها على مقاعد الدراسة ولا في محظرتها الأم .. استفاقت من شرودها على صرخات ساليمتا التي كانت تصرخ بشدة وتحك جسدها بطريقة رهيبة أفزعها منظرها ... أهذه الفتاة الوديعة التي كانت تحادثهم بابتسامة سحرية منذ ثوان .. ما الذي حصل ؟ جعلها تنقلب كالمجنونة .. كان الشيخ يمسك بها بقوة ويحاول أن يعرف ما بها ؟ بينما بدأت دموع الريم بالنزول .. كانت ساليمتا تغيب في عالم آخر من الوجع جسدها كله يؤلمها بشدة وكأن أحدهم يسلخ جلدها وببطء شديد .. عينيها اللتان لا تستطيع فتحهما و يدها التي لم تعد تستطيع السيطرة عليها بينما كان رأسها بارد بدرجة رهيبة عندما لمسه الشيخ تراجع بخطوة غير محسوبة .. لا شيء تفعله الآن سوى الصر اخ والصراخ عاليا ... لم تعد تحس بالعالم من حولها اخر ما تتذكره من تلك اللحظات صراخ الشيخ باسمها علها تستفيق أو تقول ما بها ودموع الريم ونظرات اغلانه المكسورة .

فتحت عينيها ببطء لتجد نفسها في غرفة تحوي سريرا صغيرا تتكور بداخله والآت كثيرة وجسدها كله ملفوف بضماد أبيض .. عرفت على الفور أنها في المستشفى ..كانت أمها تقف بالباب عندما سمعت همسها باسمها التفتت اليها والحنان يسيل دمعا على خديها .. إن بكاء أمها هذه المرة ليس هو تحس بأن أمها لا تبكي ما بها من أوجاع بل تبكي شيئا آخر ..

ما الذي حصل لي ؟

- لا شيء عزيزتي الأطباء يقولون مجرد وعكة وستنتهي قريبا!

ما به جسدي يا أمي .. أحس به يتمزق ولم كل هذا الضماد؟

انها أم زوجك ! قالها الحاج سليمان بانفعال شديد والذي كان يبدو من وقوفه بمحاذاة الباب أنه سمع حديثهما .. قامت الأم بسرعة لتجعله يهدأ فهو منذ ما حصل لأبنته فقد هدوءه وأصبح ثائرا ...بينما كان الحاج يتوعد بغضب أسرة الشيخ وما فعلوه به وابنته كانت ساليتما تفكر في ما حدث لها بالأمس .. لقد أمضت يوما رائعا لولا نهايته ! ويبدو أنها نسيت زيارة تكبر صباحا والغير متوقعة ! أخذت تربط أحداث الصباح بالمساء ..ففهمت كل شيء.. إذن كانت زيارة تلك المرأة لغرض ..لكن ما

الذي فعلته حتى جعلت جسدي يتمزق بهذه الطريقة ! ما الذي فعلته ومتى؟؟ فأنا لم أجلس معها سوى ثوان بل كنت واقفة ! ؟ ما الذي فعلته ؟؟؟

أمضت ساليمتا ما يقارب الأسبوعين في المستشفى تغير فيهما شكل الشيخ من شدة التعب والوجع! كان قادما من غرفة الطبيب المشرف عليها الى غرفتها لأخذها .. ما الذي سأقوله لها بل هو حتى لا يستوعب أن يعجز الطب عن شفائها أو حتى معرفة علتها ! قالها الطبيب ببساطة هذه الحالة ليست عادية كلما أعطيناها مضادا وضمدنا جروحها .. عادت وبشدة ! لم تمر علي حالة كهذه ..اذهبوا الى الطب التقليدي أو الدجل ! قد ينفع أحدهما ..

لا .. لن نذهب لأي منهما سنسافر الى دولة ما لتتلقى العلاج هناك ..كان كل شيء مفاجئا ويسير بسرعة كبيرة أخذ الشيخ قرضا من البنك الذي يعمل به وباع المنزل والسيارة ثم رحل وساليمتا لتلقي العلاج في احدى الدول المجاورة .. أمضوا ما يقارب شهرين هناك عجز الأطباء عن تحديد المرض أيضا أو علاجه وزاد الألم حتى لم تعد ساليمتا قادرة على الجلوس أو الوقوف .. رجعوا الى البلاد وهم يحملون من الوجع أضعاف ما ذهبوا به ... عادت ساليمتا الى منزل أهلها بالميناء بناء على رغبتها حيث جدتها كما تقول وستخفف عنها الألم .. رجع الشيخ الى المنزل كانت تكبر تنتظر هذه اللحظات بفارغ الصبر فقد أدركت أن خطتها محكمة وستصل الى مبتغاها قريبا كان متعبا وحزينا ويائسا فجأة اجتمعت عليه كل المواجع .. فجأة انهار كل شيء وأصبحت ابتسامة ساليمتا السحرية التي كانت تنير حياته دموعا قاتمة تذرفها حبيبته كل صباح ومساء .. لتذكره دائما أن أمه هي السبب ومن بعدها مجتمعه ! ذلك الذي قيدها بأعراف جاهلية ..كل ذلك لأني أحببت زنجية وتزوجتها .. لأني فقط قلت لا أريد الزواج من بنات عمي ! لأني فتحت ذراعي للحب وحلقت بعيدا عن عادات مجتمعي المدمرة .. كل ذلك لأني رفضت حياة بسيطة وأردت أخرى معقدة وملونه أرسم خرائطها كما أشاء وألونها كما أحب ... بينما هو كذلك دخلت عليه تكبر ظل ساهما ولم يستطع النظر حتى في عينيها ..

حسنا .. تعبت من الرحلات .. والبحث عن علاج لزنجيتك تلك ! سأدلك على الدواء .. الدواء عندك !

لا تصدقني جرب وان لم تشفى ..افعل ما تشاء !

- أتمزح ؟؟ لا أمي التي أعرفها لا تمزح .. ما هو ؟؟

طلقها وستشفى!

****

تجلس بمحاذاة الزرقة ... تتأمل سكون ذاك المساء تحمل كراسة صغيرة وقلما أزرق .. يحمل لمساته ذات مساء نابض بالحب .. مازال عطره هناك بين يديها .. مازالت رائحته كما هي وكأنه فارقها البارحة .. وليس منذ سنتين .. تصرخ بها البتول: ساليمتا لم تقولي لي كيف أحرزت علامة 16 في عنصر النقد ! إنه من أصعب العناصر ..

- تبتسم رغما عنها ما زلت كما أنت ؟ غيورة أيتها البلهاء

لم لا تعيرني هذا القلم لترتاحي قليلا!

- أرتاح من ماذا !

من عناء حمله ... لا تحاولي أن تخفي عني شيئا صحيح مرت سنتين أحسست أننا نضجنا خلالها ولم نعد مراهقات الثانوية! لكنني ما زلت أشعر بكل ما ينتابك .. ما زلت تفكرين بالشيخ! أعلم ذلك ..

- أتصدقين نسيت كل الوجع .. لكني لم أنسه يوما .. كيف انساه وهو الحب الأول !

دعيك من هذا الحديث الان ... ولنستمتع بمشهد الغروب قبل أن يزعجنا أخاك ...
- ماذا عن الريم .. ألم تعد بعد من تونس .؟؟.
لا .. لم تعد .. ولن تعود الا بعد سنة أخبرتني البارحة .. وسيدي هناك أيضا أرسلته الوزارة ضمن بعثة طبية لتلقي بعض التدريبات ...
- هذا يعني أنهما قد يلتقيان اذن !
قد ..ولكن ما فائدته .. تعرفين ما في الأمر !
نحتاج أحيانا الى صفعة قوية لنستفيق ! صفعة قدر .. ترينا كيف يكون الألم وكيف تكون السعادة أيضا .. أن تضحي بشخص لتنقذه ! كانت تلك المعادلة اذن .. في حب الشيخ لساليمتا .. بعد سنتين مازال يجلس كل مساء وابتسامتها التي علقته في هواء منذ راها لأول مرة في ثانوية لا تفارقه .. مازال يتذكر ليلة عرسهم ..كل كلمة وكل همسة وكل نظرة !! أأقول يتذكر .. هو لم ينساها أبدا .. كيف ينسى المرء نبض قلبه ! بل الغريب في الأمر أن يكون قبله معه ونبضه معها!
مازالت تعشق البحر .. هتف لنفسه عندما رآها من بعيد كانت تقف تتأمل الغروب وبجانبها فتاة .. بالتأكيد هذه البتول! مازالت جميلة ..لكن ابتسامتها اختفت وكيف لا وقد شوهت ملامح قصتنا .. تأملها طويلا وهي ترحل قبيل انتهاء الغروب بقليل وأخذ يسبح في الذاكرة مرت شرائط كثيرة وطويلة كلها بطلتها ساليمتا .. أغمض عينيه وهو يستنشق نسيم البحر وبدأ يكتب على الرمل :

وددت الرحيل ...
مع شمس هذا المساء ..
تساءلت كيف ؟؟ يكون الرحيل قبيل المساء ..
أيكون موجعا كآهات اشتياقك ؟!
أم متعبا كالسفر بين دروب حبك ؟!
أم مغرقا كالسباحة في نهر عينيك ؟!
أم لذيذا كجل كلماتك ؟!
قل لي... أخبرني ..
كيف يعيش حبك كل هذا الوقت في ؟؟...
دون همساتك ...
دون نظراتك ...
دون لعناتك ...
كيف يكون حبك مؤلما جدا؟؟ ...
مؤنسا جدا
وجاذبا ...مغرقا ..موحلا جدا جدا ...
قل لي .. أخبرني
كيف يكون القصاص من نظراتك ؟!
والخلاص من ابتسامك ؟!

تمت بحمد الله 2015_09_02